

رجل المستحيل

روايات

مصرية للجيب

عملية عنق الزجاجة

د. نيسل فاروق

سلسلة
الأعداد
الخاصة

11

Looloo

www.dvd4arab.com



١ - ذكريات حربية ..

ساد هدوء تام للطابق الثالث ، من مبنى الأمن القومي ، داخل نطاق المخابرات العامة المصرية ، في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، على الرغم من أن النشاط المعتاد لم يتوقف لحظة واحدة ، خلف الأبواب المغلقة ، وفي حجرات وأقسام الاستماع ، والبحث الاعتراضي ، والقسم المسئول عن شبكات الإنترنت السرية ، الخاصة باتصالات الجهاز المشفرة ..

وفي إرهاب واضح ، فرك مدير المخابرات عينيه ، وتساءل في قوة ، وهو يقول لنائبه الأول ، مشيراً بيده :

- يا له من عمل ! المشكلات لا تتوقف لحظة واحدة ، والمواقف الحرجة ، التي تستلزم تدخلاً سريعاً ، تحتاج إلى ما يزيد على ساعات اليوم ، لمراجعتها ، ومناقشتها ، وإيجاد الحلول اللازمة لها فحسب .

لهتسم نائبه ، وهو يقف في خفوت :

- هذا أمر طبيعي يا سيدي ، فعيوننا منتشرة في كل مكان في العالم ، ولا أحد يرغب في أن نحقق أية انتصارات ، على أية محاور ، لذا فالصراع مستمر طوال الوقت ، والحرب الخفية لا تتوقف لحظة واحدة .



رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصري ، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون) ، يعني أنه فئة نادرة ، أما الرقم (واحد) فيعني أنه الأول من نوعه ، هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة ، من المسلس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال ، من المصارعة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادته للثامة لست لغات حية ، وبراعته الفائقة في استخدام أدوات التنكر و (المكياج) ، وقيادة السيارات والطائرات ، وحتى الفواصات ، إلى جانب مهارات أخرى متعددة . لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد في سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذي أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل) .

د. تبيل فاروق

تنهّد المدير ، ومال إلى الأمام ، قائلاً :

- العجيب أن المواطن العادي لا يدرك شيئاً عما يدور ، في كل بقعة من العالم ، في كل لحظة ، بل ولا يمكنه أن يتصور لحظة واحدة ، أنه لكي يجلس في منزله آمناً ، هادئاً ، مستقراً ، لا بد أن يقاتل رجالاً كالوحوش ، يجازفون بأرواحهم نفسها طوال الوقت ، ويحيون حياة يستنكر حتى إمكانية وجودها .

هزّ نائبه كتفيه ، وقال :

- هذه سنة الحياة .

أشار المدير بيده ، وهو يتراجع مرة أخرى في مقعده ، قائلاً :

- وطبيعة عملنا .

غمغم نائبه :

- بالتأكيد .

تنهّد المدير مرة أخرى ، قبل أن ينهض من خلف مكتبه ، قائلاً ، وهو يلقي نظرة على ساعته ، التي أشارت عقاربها إلى الثالثة والنصف صباحاً :

- ولكن حتى أمثالنا يحتاجون إلى النوم والراحة .. قل لي :

هل ستعود إلى منزلك مثلي ؟!

نهض النائب في احترام ، وأجاب :

- الواقع أنني أتمنى هذا ، ولكن هناك رسالة شفرية انتظرها ، من (جواتيمالا) ، في خلال ساعة .

رَبَّت المدير على كتفه ، قائلاً :

- فليكن .. وفقك الله (سبحانه وتعالى) .

ثم ابتسم ، مضيقاً ، وهو يغادر المكتب :

- وأعاتك .

كان يشعر بإرهاق حقيقي ، بعدما يقرب من عشرين ساعة من العمل المتواصل ، وخمس اجتماعات بفرق عمل ، ومراجعة ما يزيد على ثلاثمائة تقرير عاجل ، من مختلف أنحاء العالم ، لذا فقد تناءب مرة أخرى ، وهو يشير إلى حارسه بألا يتبعه ، ويقطع الممر الطويل أمامه في خطوات سريعة ، و ... وفجأة ، تحفّزت كل ذرة في كيانه ..

شيء ما ، لم يدركه كله بالضبط ، وسط الهدوء التام ، جعل حواسه كلها تنتبه ، وأطلق في أعماق أعماقه صفارة إنذار صامتة ، يعرفها ويدركها جيداً كل رجل مخابرات ، في العالم أجمع ..

وبحركة حادة ، استدار بكيانه كله ، نحو حجرة الأرشيف

الخاص .

الحجرة التي تحوى أهم وأخطر وأدق أسرار العمليات ، التي
قام بها رجال المخابرات المصرية ، منذ إنشاء الجهاز ، عام
١٩٥٤م

وبخطوة واسعة أشبه بوثبة فهد رشيق ، اتجه نحو الحجرة ،
وفتح بابها ، وهو يهتف فى صرامة :

- من هنا ؟

قبل حتى أن يكتمل هتافه ، كان بصره قد وقع على ذلك
الجسم الضخم المكتظ ، الذى يكاد يملأ فراغ الحجرة ، ورأى
صاحبه ، الذى قفز قزعا ، وهو يهتف :

- سيادة المدير ؟

ارتفع حاجبا المدير فى دهشة ، وهو يقول :

- (قدرى) ؟ ماذا تفعل هنا ، فى هذه الساعة ؟

التقط (قدرى) نفسا عميقا ، فى محاولة للسيطرة على
انفعاله ، وهو يلوح بذراعيه على نحو مضحك ، قائلا :

- لقد .. لقد ألهتنى العمل المتواصل ، وأردت أن .. أن ..

قاطعه المدير فى اهتمام :

- هل تبحث عما تقرؤه ؟

أزرد (قدرى) لعابه فى توتر بالغ ، وهو يجيب :
- إبنى أحد المصرح لهم بدخول هذا القسم ، والاطلاع على
ملفاته .. أليس كذلك ؟

رمقه المدير بنظرة صامتة صارمة طويلة ، قبل أن يجيب :
- هذا صحيح يا (قدرى) ، ولولا هذا لما استجاب الرتاج
الإلكترونى لبطاقتك الممقنطة ، ولكن هذا لا يعنى أن قسم
الأرشيف الخاص قد تحول إلى مكتبة عامة ، يمكنك استعارة
ما تشاء منها ، فى أى وقت من الليل أو النهار .. المفترض أن
تتعامل معها كمستندات أو مراجع هامة ، تفيدك فى عملك
فحسب .

ارتبك (قدرى) أكثر ، وهو يقول :

- هذا ما أفعله دائما ، ولكن الواقع أن .. أن ..

شعر المدير بشيء من الإشفاق عليه ، وهو يرتجف على
هذا النحو ، بجسده الضخم . فتجاوز الموقف فى سرعة ،
متسائلا :

- (ن - ١) .. أليس كذلك ؟

أزرد (قدرى) لعابه فى عذوبة ، وهو يجيب :

- بلى يا سيدي ، ولكن يبدو أننى قد قرأت كل ملفاته القديمة ،
التي لم أعاصر أحداثها بنفسى ، ولم يعد هناك جديد .

أدار المدير عينيه في الملفات العديدة ، قبل أن يتسهم ،
مغمغماً :

- هل تعتقد هذا ؟!

أجابه (قدرى) فى يأس :

- لقد راجعت ملفاته كلها .

جذب المدير مقعداً ، وجلس فى الدوء ، وهو يقول بنفس
الابتسامة :

- ربما هناك عمليات ، لم تتضمنها هذه الملفات .

هتف (قدرى) فى لهفة :

- حقاً ؟!

أشار المدير إلى مقعد كبير ، وهو يقول :

- اجلس .

أطاعه (قدرى) فى آلية ، وهو يتساعل بلهفة أكبر :

- هل توجد بالفعل عمليات للعميد (أدهم) ، لم أطالها قط ؟!

أجابه المدير بابتسامة غامضة :

- بالتأكيد .

هتف (قدرى) ، بكل لهفة الدنيا :

- مثل ماذا ؟!

صمت المدير طويلاً هذه المرة ، حتى اشتعلت لهفة (قدرى)
إلى نروتها ، قبل أن يقول المدير :

- ألم تسأل نفسك قط ، لماذا تربطنى بـ (ن - ١) دوماً
علاقة خاصة جداً ، تختلف عن علاقتى بكل زملاي ، من ضباط
المخابرات العامة ؟!

هز (قدرى) كتفيه المكتظين ، قائلاً :

- هذا أمر طبيعى ، فـ (أدهم) ليس ضابط مخابرات تقليدياً ..
إنه شخص متميز للغاية ، و ..

بتر عبارته ، مع ابتسامة المدير الغامضة ، التى اتسعت أكثر
وأكثر ، مما جعله يضيف فى حيرة حنرة :

- ليس كذلك ؟!

أجابه المدير بنفس الابتسامة :

- بلى .

ثم استدرك فى سرعة :

- ولكن هذا ليس السبب الفعلى .

كاد (قدرى) يفقد نصف وزنه دفعة واحدة ، من شدة لهفته
واتفعاله ، وهو يسأل بحلق جاف :

- ما هو إذن ؟

مال المدير نحوه ، وهو يقول بلهجة خاصة :

- الواقع أننى أعرف (ن - ١) ، قبل أى ضابط هنا .

ثم عاد يعتدل فى مجلسه ، متابعاً فى حزم :

- لقد كنت قائد كتيبة الصاعقة ، التى كان هو أحد ضباطها ،
عندما اشتعلت حرب السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣م

هتف (قدرى) بدهشة عارمة :

- حقاً ؟

لم يبد أن المدير قد سمعه ، وهو يواصل حديثه ، وقد
شردت عيناه ، وكأنما يستعيد ذكرى تلك الأيام :

- كان أيامها أيضاً ضابطاً متميزاً للغاية ، لا مثيل له بين
أقرانه .. يمتلك قلباً كالأسود ، ونبلًا كالجياذ ، وجموحًا كالنصور ..

باختصار .. كان أفضل ضابط صاعقة ، على طول الجبهة .

ازرد (قدرى) لعبابه فى صعوبة ، من شدة الانفعال ، وهو
يشير بيده إشارة غير ذات معنى ، قائلاً :

- لقد قرأت بالفعل ملف العملية ، التى قام بها ، قبيل حرب
أكتوبر مباشرة ..

هز المدير رأسه ، وهو يستعيد ابتسامته ، قائلاً :

- هناك عملية أخرى ، لم تقرأ عنها شيئاً حتمًا ، بدأت قبيل
اشتعال الحرب ببضع ساعات ، وامتدت إلى يومها الثانى .

واقصت ابتسامته ، وهو يضيف :

- فى قلب (سيناء) .

لهث (قدرى) فى انفعال ، هاتفًا :

- يا إلهى ! يا إلهى .

نهض المدير من مقعده ، وتلاشى إرهابه ورغبته فى النعاس ،
وهو يتحرك فى الحجرة بنشاط عجيب ، قائلاً :

- فى تلك الأيام ، وكجزء من خطة الحرب ، كنا نعلم أن
الإسرائيليين لن يضيعوا لحظة واحدة ، مع الضربة الجوية الأولى ،
لإنقاذ وحماية خط (بارليف) ، وإرسال الإمدادات البشرية والآلية
والعسكرية إليه ، نظرًا لإثرائهم أن انهياره يضى أننا قد انتصرنا
بالفعل ، أياً كانت النتائج فيما بعد ، فلقد صنعوا منه أسطورة ،
تضاف إلى محاولاتهم السخيفة ؛ لإقناع العالم كله بأنهم جيش
لا يقهر أبدًا .. لذا فمن أولويات استراتيجية القتال ، أن نمنع

وصول تلك الإمدادات إلى خط (بارليف) ، بأى ثمن كان ، حتى
ينهار تماماً ، وينتقل من قبضتهم إلى قبضتنا ، ويصبح نقطة
انطلاق قوية ، إلى (سيناء) المحتلة - آنذاك - وركيزة للحرب
النفسية ، التى خططنا لتدمير الروح المعنوية للعدو بها تماماً .

وصمت لحظة ، التقط خلالها نفساً عميقاً ، قبل أن يتابع :

- ولأن (سيناء) ذات طبيعة صحراوية جبلية ، كنا نعلم أن
الوسيلة الوحيدة ، لمرور الإمدادات الإسرائيلية ، من القيادة فى
الشرق ، إلى خط (بارليف) فى الغرب ، هى عبر ممراتها
الجبلية (*) ، وأن السيطرة على تلك الممرات ، تعنى السيطرة التامة
على الإمداد والتموين ، وعلى حركة القوات فى الاتجاهين ..
أو بمعنى أدق .. السيطرة الكاملة على خط سير القتال كله .

وصمت لحظة أخرى ، شرد خلالها بصره أكثر ، وتضاعفت
بعدها حيويته ، وهو يكمل :

- ولكن العدو كان يسيطر على تلك الممرات بالفعل ، ويدرك
أهميتها وخطورتها ، مما يعنى أن يبذل أقصى ما لديه من مال

(*) حقيقة ، وبالأدات فى تلك الفترة . التى تعدت فيها وسائل الاتصال
المهولة أو كادت ، بحيث صار من غير الممكن نقل أية معدات ثقيلة ، مثل
الدبابات والعربات المدرعة ، وغيرها ، إلا من خلال منطقة الممرات . التى كان
أشهرها ممر (متلا) ، ويليه ممر (الجدى) .

وعتاد ورجال لحمايتها ، واستمرار سيطرته عليها ، ويعنى أيضاً
أننا سنخسر تفوقنا القتالى والعسكرى خلال يومين لحسب ، من بدء
القتال ، مما سيؤدى إلى انقلاب الموازين ، وخسارتنا لعدد مخيف من
الرجال والأسلحة ، قد يفوق ما خسرناه فى نكسة يونيو ١٩٦٧م
والتقط نفساً عميقاً طويلاً ، وتألقت عيناه بشدة ، مع
استطرافته :

- وهنا جاء دور أسود (مصر) .. رجال فرق الصاعقة .

هتف (قدرى) ، وقد شمله حماس مباغت :

- بالتاكيد .. بالتاكيد .

تابع المدير :

- كانت عملية بالغة الأهمية والخطورة .. أطلقنا عليها اسم
(عناق الزجاجة) ، إشارة إلى الممرات ، وصعوبة اجتيازها
والسيطرة عليها .

وهز رأسه ، وعيناه تشردان أكثر وأكثر ، وهو يقول :

- عملية تألق فيها رجال الصاعقة المصريون ، كما لم يحدث
من قبل ..

وأزهقت خلالها أرواح أفضل الرجال والشباب ، من خيرة
شهادتنا ، وأريققت معها أنهار من الدماء العطرة الزكية ،
وسجل التاريخ مع لحظاتها أعظم وأقوى البطولات والتضحيات ،
التى لم تعرف الحروب مثيلاً لها قط .

وصمت لحظة ، قبل أن يدير عينيه إلى (قدرى) ، قائلاً :
- ولكن ما فعله (أدهم) آنذاك ، كان مذهلاً بكل المقاييس .
سأله (قدرى) ، بكل لهفة الدنيا :

- وما الذى فعله ؟

التقط المدير نفساً آخر عميقاً للغاية ، وتمتم :

- سأخبرك ما الذى فعله ؟

وكاد (قدرى) يقفز من مقعده بحق ، مع لحظة الصمت ،
التي أعقبت عبارة المدير الأخيرة هذه ..
كاد يصرخ مطالباً بالقصة كلها ، وكل ذرة فى كيانه ترتجف
فى قوة ..

وعنف ..

ولهفة ..

ولم يطل المدير انفعاله ..

لقد شرد ببصره بضع لحظات فحسب ، ليسترجع تلك
الذكريات البعيدة ، قبل أن يعود إلى مقعده ، ويجلس عليه
بمنتهى النشاط ، و ...

ويروى القصة ..

قصة العملية ..

عملية عنى الزجاجاة ..

* * *

٢ - الأسود ..

لارتفع أزيز الطائرة الحربية المصرية ، وهى تحلق على
ارتفاع شاهق ، فوق صحراء (سيناء) ، فى الساعة الأخيرة
من الخامس من أكتوبر ١٩٧٣ م ، وقائدها الخبير يقودها فى
مسار شديد التعقيد ، ببراعة مذهشة ، ساعدته على تفادى
شبكات الرادار الإسرائيلية ، المنتشرة فى المنطقة ، منذ استقر
فيها الجيش الإسرائيلى ، إثر نكسة يونيو ١٩٦٧ م ..

وبداخل الطائرة ، جلس أسود الصاعقة المصريون فى صمت
تام ، بكامل تسليحهم ، وعدتهم ونخيرتهم ، وكل منهم يراجع
فى ذهنه كل التفاصيل ، التي يحفظونها عن ظهر قلب ، حول
مهمتهم هذه ..

وباستثناء قادة الجيش وأفرعه ، كان هؤلاء الرجال وحدهم
يدركون أن ساعة الصفر ، التي طال انتظارهم لها ، قد اقتربت
وحانت أخيراً ، وصار عليهم أن يواجهوا العدو مباشرة ، كما
حلّموا وتمنوا طويلاً ..

والعجيب أن أحداً لم يخبرهم بهذا صراحة قط ..

فهى ليست أول مهمة لهم ، ضد العدو الإسرائيلى ..

لقد اشتبكوا معه أكثر من مرة ، خلال حرب الاستنزاف ،
على رمال (سيناء) ..

ولكن هذه المرة حتمًا تختلف ..

ففى كل اشتباكات حروب الاستنزاف ، كانت لديهم خطة
للعودة ..

عبور للقناة قبل الفجر ..

أو هليوكوبتر تلتقطهم ، على ارتفاع منخفض ، من قلب
المعركة .

أما فى هذه المرة ، فلم يتحدث أحد عن العودة ..

كل ما طلبه منهم القادة ، هو أن يمنعوا مرور الإمدادات
الإسرائيلية عبر الممر ، من الشرق إلى الغرب ..

وبأى ثمن ..

وبذل الجهد ، والروح إن اقتضى الأمر ، للسيطرة على
الممرات ، لثلاثة أيام على الأقل ..

ولم يكن الأمر بحاجة إلى كثير من الذكاء ، ليدرك الرجال
ما عليهم فعله .

وماذا ينتظرهم هناك ..

وعلى الرغم من هذا ، فلم يعترض أحدهم ، أو ينبس بحرف
واحد ..

ولم يتراجعوا ..

أو يترددوا ..

لقد قبلوا المهمة ، واستقلوا الطائرة إلى جحيم القتال ، وهم
يطمون أنها - على الأرجح - مهمة فى اتجاه واحد ..

بلا عودة ..

ولم يفت هذا فى عضدهم لحظة واحدة ..

لقد ظلوا كما كانوا ..

أسودًا ..

ومن بين هؤلاء الأسود ، كان الملازم أول - حينذاك -
(أحمد صبرى) ..

لم يكن - بحكم رتبته - قائدًا للمجموعة ، وإنما كان واحدًا من
ثلاثة ضباط ، أتيط بهم قيادة تلك الفرقة ، التى سيكون عليها
احتلال ممر (متلا) ، والسيطرة عليه تمامًا ، من الثانية
إلا الربع ، من ظهر السادس ، وحتى منتصف السابع من
أكتوبر ..

بأى ثمن ..

نفس المهمة ، التي ستقوم بها فرقان أخريان ، بالتسبب
للمعربين الباقين ..

ولقد بدا مختلفاً تماماً عن الآخرين ..

ليس بقامته الممشوقة ، وبنيتة القوية ووسامته الملحوظة
فحسب ، ولكن بذلك الهدوء الشديد ، الذي جعله يبدو أشبه بـ رجل
في طريقه إلى نزهة طريفة ، وليس كمقاتل بهم بخوض أعنف
معركة ، في حياته كلها ..

ولكن ذلك الهدوء كان مجرد إطار خارجي فحسب ..

ففي أعماقه كان هناك نهر متلاطم الأمواج ، وبركان ثائر ،
يقذف الحمم بلا هوادة ، لتتساب عبر عروقه ، وتشتعل في كل
خلية في جسده ..

لقد كان يعلم أنها اللحظات الحاسمة ..

الساعات الأخيرة من الاحتلال الإسرائيلي للبحر ، الذي
يؤلم مشاعره ويجرح كرامته ، منذ ست سنوات كاملة ..

وكان يشعر بلهفة شديدة للاشتباك ..

ولخوض هذه المعركة ..

بكل ذرة في كيانه ..

« استعد .. »

لم يكد النداء ينطلق ، من بين شفتى ضابط القفز ، حتى هب
الأسود بحركة واحدة ، واصطفوا عند باب الطائرة ، وعيونهم
معلقة بالمصباح الأحمر في السقف ، والضابط يقول :

- فتح المظلات عند ألف وسبعين ، حتى لا ترصدكم عيون
الإسرائيليين .. اتخذوا مواقعكم فور الهبوط ، ولا تتحركوا أو
تشتبكوا مع العدو ، حتى الساعة (س) ، مهما كانت الأسباب .
استمعوا إليه في اهتمام صامت ، وعيونهم ما زالت معلقة
بالمصباح الأحمر ، و ...

« القفز .. »

انطلق الهتاف ، في نفس اللحظة التي انطلق فيها المصباح
الأحمر ، وأضيء المصباح الأخضر في سقف الطائرة ..

وبدون لحظة واحدة من التردد ، قفز الرجال ..

وفي سماء (ميناء) ..

وفي قلب الليل ، هبط الأسود ..

خمسون بطلاً مصرياً ، سبحوا في سماء أرضهم المحتلة ، وكل
منهم يستخدم كل ما تعلمه وخبره ، ليحدد مساره وهدفه ، و ...

وبمنتهى الاهتمام ، حاول (أدهم) أن يخترق الظلمة ببصره ،
ليطمئن إلى أن كل الرجال يهبطون بأمان ..



وبسرعة ، جذب حبال المظلة ، وطواها ، ثم دفعها بين صخرتين
كبيرتين ، وهو يحمل حقيبتها ..

وعلى الرغم من الضوء الخافت ، والسقوط بسرعة الجاذبية
الأرضية ، رأهم يجذبون حبال مظلاتهم ، واحداً بعد الآخر .

حتى المقدم (راشد) ، والنقيب (مدحت) ..

وبعد أن اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام . جذب حبل
مظلته ، وراح يجذب حبالها في مهارة وبراعة ، حتى لمح قمة
الجبيل ، فضم ركبتيه إلى صدره ، وترك جسده يهبط في نعومة
مدهشة ، لا ينافسه فيها أحد ..

وبسرعة ، جذب حبال المظلة ، وطواها ، ثم دفعها بين
صخرتين كبيرتين ، وهو يخلع حقيبتها ، ثم يحمل مدفعه الآلى ،
ويتحرك في خفة .

كان يعلم كأقرانه أن الإسرائيليين لن يتركوا السطح خالياً
تماماً ، في مكان يدركون مدى أهميته وخطورته ..

ولهذا اختارت القيادة تلك البقعة النائية البعيدة .

وذلك الموعد الليلي بالتحديد ، حيث يتم تبادل الحراسة ، وتغيير
النوبتجيات ، مما يتيح عملية هبوط آمنة بقدر الإمكان .

ولكن احتمالات الخطر ما زالت قائمة ..

الدورية الإسرائيلية الطائرة ستقوم بتمشيط الجبل ، خلال
سبع عشرة دقيقة فحسب ..

وينبغي أن يختفى الجميع عندئذ ..

بمنتهى الأحكام ..

وضاعف (أدهم) من سرعته ، وهو يثب عبر الصخور ،
حتى بلغ نقطة النقاء ، وما لبث لمح المحمّد (راشد) ، قائد
الفريق ، حتى أشار بيده ، هاتفا بصوت خافت :

- لسرع ليها الملازم .

كان الرجال يتجمعون من كل صوب ، في تلك النقطة ، التي رأيت
القيادة أنها أفضل بقعة لمراجعة الموقف ، وتأكيّد نجاح الهبوط .
وطبقا للتعليمات ، لم يكن من المسموح إجراء أية اتصالات
لاسلكية ، قبل بدء الاشتباك ، خشية أن يعرضها العدو ، على
نحو أو آخر ، فتضيع المفاجأة تماما ..

وبسرعة ، راح المحمّد (راشد) يراجع موقف الرجال ..

كل منهم كان يدلي باسمه ، ورقمه ..

والوقت يمضي في سرعة ..

الدورية الطائرة ستظهر بعد تسع دقائق لحسب ..

وفجأة ، هتف أحد الرجال :

- (منير) مفقود .

توتر الموقف بشدة ، وتساءل النقيب (مدحت) :

- هل رآه أحدكم يقفز من الطائرة ؟!

أجابه أحدهم في سرعة :

- نعم .. كان يهبط إلى جوارى مباشرة .

تساءل للمقدم (راشد) في قلق :

- أين هو إذن ؟!

تلفت (أدهم) حوله ، وهو يفحص في صرامة :

- أخشى أن ..

ثم بتر عبارته ، وهو يلتقط منظارا مقربا خاصا ، مجهزا
للرؤية الليلية ، ثم يفحص به المنطقة كلها .

وكان الوقت يمضي بسرعة مخيفة ..

وموعد الدورية الطائرة يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ثم فجأة ، وقع بصره عليه ..

كان ملقى في زاوية بعيدة والهواء يتلاعب بمظلته ، على
نحو يوحى بأنه قد فقد وعيه إثر السقوط ، أو ...

أو لقي حتفه .

وفي نفس اللحظة ، التي وقع فيها بصر (أدهم) عليه ،

لاح أنيز هليوكوبتر الدورية الطائرة من بعيد .

- وننترك الباقي لله (سبحاته وتعالى) ، هو نعم المولى
ونعم النصير

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان الملازم أول
(أدهم صبرى) يعدو ويثب بين صخور الجبل ، وأزيز الهليوكوبتر
الإسرائيلية من خلفه يقترب أكثر

وأكثر ..

وأكثر ..

و (مدير) كان يرقد عند الحافة ..

ومظلمته تجذبه ، بفعل الرياح ، نحو العمر ..

والمسافة بين (أدهم) وبينه تبدو كأنها بلا نهاية .

لذا ، فقد ضاعف (أدهم) من سرعته ، حتى لقد بدا وكأنما قد
تحول حياته كله إلى آلة عدو ، تجتاز كل ما أمامها من عقبات .

مهما كان الثمن

وبوثبة أخيرة ، بلغ موضع جندى الصاعقة ..

لم يكن هناك وقت للتأكد مما أصابه ، لذا فقد قفزت أصابع
(أدهم) ، تقبض على حبل المظلة ، وجذبها إليه فى سرعة
وقوة ، و ...

واتعقد حاجبا المقدم (راشد) ، وهو يغمغم :

- رباه ! مستحيل أن يكشف الأمر ، بعد كل هذا

ولكن الملازم (أدهم) هتف ، وهو يلقي إليه بمنظار الرؤية
الليلية ، ويثب فى خفة بين الصخور :

- اختبئوا .

اتسعت عيون الجميع فى دهشة ، والنقيب (مدحت)
يهتف :

- الدورية الطائرة بدأت أيها الملازم ، والوقت لن ..

ولكن المقدم (راشد) قاطعه فى حزم :

- افعل ما يقول أيها النقيب ، فإما أن نختفى عن أعين الدورية
الطائرة الآن ، أو يتم إجهاض العملية كلها قبل الأوان

قال النقيب (مدحت) فى توتر :

- ولكن الوقت لن يكفيه لـ ...

دفعه المقدم (راشد) على صخرة كبيرة ، وهو يشير إلى
باقي الرجال بالاختباء ، قائلا فى صرامة :

- فليقم كل منا بعمله .

ثم اتعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ولكن فجأة ، وقبل أن يبدأ في طيها ، برزت الهليكوبتر الإسرائيلية فوقه مباشرة ، وهدير مراوحها الضخمة يكاد يصم أذنيه ..

وكان هذا يعني أن طاقم الدورية الطائرة داخلها قد لمح حتماً .
وأدرك هويته ..

ومعنى وجود مظلة الهبوط ..

ويعنى بالتهبة أن عملية (عنق الزجاجاة) قد فشلت
قبل حتى أن تبدأ ..

* * *

« هل تعتقد أنهم سيفعلونها ؟ »

ألقى رئيس الجمهورية (أنور السادات) السؤال ، على وزير الحربية^(*) ، داخل مكتبه في القصر الجمهوري ، وهو يشعل غليونته الشهير ، في محاولة للتغلب على توتره وانفعاله ، قبل أن يلقي نظرة على ساعته ، متابعاً :

- إنها الدقائق الأولى من يوم الحسم ، والمفترض ألا يفصح الأولاد عن وجودهم ، إلا قبيل ساعة الصفر بدقائق معدودة ..

(*) في تلك الفترة ، كان وزير الدفاع يعرف بوزير الحربية

قال وزير الحربية ، في وقفته العسكرية الصارمة :

- سيبتلون قصارى جهدهم يا سيادة الرئيس ، وإن يترننوا في التضحية بحياتهم نفسها ، في سبيل وطنهم .

أوماً الرئيس برأسه متفهماً ، ونفث دخان غليونه ، وهو يغمغم :

- أعلم هذا يا رجل .. أعلم هذا .. قبولهم المهمة ، في ظل هذه الظروف ، أسفر عن معنهم ووطنيتهم .

ثم تطلق من أعماق صدره تهيدة كبيرة ، قبل أن يواصل :

- ولكنك تعلم مدى دقة وخطورة الموقف .. لقد بذلنا جميعاً جهداً خرافياً ، طوال عام كامل ، لنقنع الإسرائيليين بأنه ليست لدينا قنية لخوض حرب ضدهم ، بأي حال من الأحوال ، وفي الآونة الأخيرة بالذات ، بلغت خطة الخداع ذروتها ، فأعلننا عن فتح باب التسجيل لعمره (رمضان) ، وعن زيارة اللواء (حسنى مبارك) ، قائد القوات الجوية للجمهورية الليبية ، وإعداد مراسم استقبال بعض الضيوف الأجانب ، وتعمدنا أن نظهر في كل الصور الرسمية هائلين مبتسمين ، شأن أية حكومة مستقرة ، لا يخطر ببالها القيام بأية عمليات عسكرية ، بل إننا حتى قد قمنا بدراسة موقف المواد لتموينية ، بحيث

لا يجذب اهتمامنا بتخزين السلع الرئيسية تجنباً العدو* .
لا يمكنني أن أتصور أنه ، بعد كل هذا ، يمكن أن تتكشف خطة
المعركة كلها ، قبل ساعة الصفر ، بسبب خطأ غير مقصود ،
أو تهوّر غير مدروس مثلاً ..

شدّ وزير الحربية قامته أكثر ، وهو يقول في حزم :
- الرجال يفضلون الموت على هذا يا سيادة الرئيس ؛ لأنهم
يدركون ويقدرّون مدى أهمية وخطورة مهمتهم ..
نفث الرئيس (السادات) دخان غليونه مرة أخرى ، قائلاً :
.. أتعشّم هذا أيها الوزير .. أتعشّم هذا .
كان بالتأكيد يدرك ويثق بكفاءة الرجال ..
ولكنه ، في ظل هذه الظروف ، لم يكن يستطيع منع ذلك
القلق ، الذي تصاعد في أعماقه ، حتى بلغ الذروة ..
أو أكثر قليلاً ..

لم يكن من الممكن أن تضع ثانية واحدة ..
لقد أدرك (أدهم) أن الدورية الإسرائيلية الطائرة ، الممنولة
عن مراقبة وتأمين الجبال ، التي يخترقها ممر (متلا) ، قد
لمحت ، ولمحت جثة (منير) ومظلته ..

(*) حقيقة

وأدركت ما يعنيه هذا ..

وأنه في الثانية التالية مباشرة ، سيتم إبلاغ القيادة ، وإعلامها
بوجود رجال مظلات مصريين عند الممرات ، و ...

وهو لن يسمح بحدوث هذا قط ..

مهما كان الثمن .

وقبل أن تمضي الثانية ، كان الملازم أول (أدهم) قد حسم
موقفه ..

ودرس مأزقه ..

واتخذ قراره ..

ونفذه ..

وقبل حتى أن يدرك الكل ما يحدث ، حتى ركاب الهليكوبتر
أنفسهم ، كان (أدهم) يعدو نحوها كالصاروخ ، ثم وثب ..
كانت الهليكوبتر ترتفع أربعة أمتار كاملة عن الأرض ،
ولكنه دفع قدميه في صخرة كبيرة ، ثم وثب نحوها ككرة من
المطاط .

ومن حيث يختبئ الرجال ، فغر النقيب (مدحت) فاه في
ذهول ، في حين هتف المقدّم (راشد) :

- ماذا يفعل هذا المجنون !؟

قبل حتى أن تكتمل عبارته ، كان الملازم أول (أدهم) قد تعلق
بالقائم السفلى للهليوكوبتر ، ثم دار حول نفسه بمرونة مذهلة ،
ووثب داخل الهليوكوبتر ، عبر بابها الجانبي المفتوح ..

واتسعت عيون ركاب الهليوكوبتر الأربعة في ذهول ، وهو
يستقر بجسده داخلها ، قائلاً :

.. هل لمزعجتكم ؟!

وثب أدهم نحو مدفعه الآلى ، واستلّ الثامن والثالث
مسدسيهما ، في حين اختطف الرابع بوق اللاسلكى ، في
سرعة ولهفة ..

ولكن أسد الصاعقة تحرك بسرعة استحق معها لقبه ..

تحرك كالصاعقة ..

صاعقة انقضت على أسنان الأول ، وهشمت أنف الثامن ،
ولبضت على معصم الثالث ، لتمنعه من إطلاق رصاصته ، في
نفس اللحظة التى أصيب فيها الرابع بركلة كالقنبلة فى مؤخرة
عنقه ، قبل أن يضغط زر الاتصال ، فاندفع جسده إلى الأمام فى
عنف ، وارتطم بزجاج الهليوكوبتر الأمامى ، وصدره يدفع
عصا القيادة ..

وفى نفس اللحظة ، التى تحطم فيها فك الإسرايلى الثالث ،
كأنت الهليوكوبتر تميل إلى الأمام بحركة عنيفة ، ثم تهوى بكل
قوة محركاتها إلى أسفل ..

نحو مدخل المر ..

مباشرة ..



أجاب رئيسه :

- هليوكوبتر الدورية الطارئة ، عند ممر (متلا) ، سقطت أمام الممر ، وانفجرت هناك .

نفض الخبر كل أثر للعاس . من عيني (باراك) ، وهو يسأل :

- أهي عملية مصرية ؟!

قال رئيسه في خشونة :

- ما هو عملك إذن ؟^{١٤} المفترض أن تجيب أنت هذا السؤال . لقد أرسلت خبيراً إلى موقع الحادث ، لفحص حطام الهليوكوبتر ، وآخر تبحث سبب مصرع ركابها ، وعليك أنت أن تحدد مسئولية المصريين عن سقوطها .

صمت (باراك) بضع لحظات ، قبل أن يقول في حزم .

- وما الذي سيأتى بالمصريين إلى هنا ؟!

أجابه في حدة :

- أذهب وابحث بنفسك

زغر (باراك) في توتر ، وقال :

- حسناً .. حسناً .. سأذهب على الفور .

٢ - ساعات الخطر ..

هب (باراك عمتاي) ، رجل المخابرات الإسرائيلي ، ومسؤول أمن الممرات ، من فراشه في حدة . مع رنين الهاتف ، واختطف سماعته في سخط ، وهو يقول في عصبية :

- (عمتاي) .. من المتحدث ؟!

أته صوت رئيسه المباشر ، وهو يجيب في صرامة :

- إيه أنا يا (باراك) . هيا انفض النوم عن عينيك ، فأمامك عمل عاجل وطارئ .

ألقي (باراك) نظرة على ساعته ، وهو يقول محققاً :

- في هذه الساعة ؟!

أجابه رئيسه في غلظة :

- أهنأك ساعات محددة للطوارئ^{١٥} ! هيا ي رجل لا وقت

في عملنا للتقاعس والتكاسل .

تنأعب (باراك) ، وهو ينهض من فراشه ، متسائلاً .

- ماذا هناك ؟!

أنهى الاتصال ، وهو يشعر بمسخط شديد ، وراح يتساءل فى أعماقه ، وهو يرتدى ملابسه : أمن الممكن أن يكون للمصريين يد فى هذا الحادث ؟!

لم يبد له السؤال منطقياً ، فى ظل هذه الظروف : فكل الدلائل والمعلومات ، الواردة من المخابرات الأمريكية ، ومن رجال (الموساد) ، فى كل أنحاء العالم ، تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك ، أن المصريين لن يحاربوا أبداً ..

ليس ذلك العام الحالى أو التالى على الأقل ..

ثم إن حرب الاستنزاف قد توقفت ، بعد مبادرة (روجرز) ، ولم يعد هناك مبرر لتوغل المصريين فى العمق . والقيام بعملية محدودة كهذه !!

فهم يفيدهم إسقاط هليكوبتر الدورية الجوية ؟!

إنهم يعتقدون حتماً أن هليكوبتر جديدة ستحل محلها ، خلال نصف الساعة لحسب ..

فما الذى يمكن فعله ، خلال نصف الساعة ؟!

اتخذ حاجباً فى شدة ، وهو يراجع كل هذا فى ذهنه ، قبل أن تقفز إلى كياته كله فكرة واحدة ..

عملية إبرار جوى ..

المبرر الوحيد لإسقاط هليكوبتر الدورية الجوية ، هو الاستعداد لهبوط بعض رجال المظلات على الجبل ..

بدأت له الفكرة مخيفة إلى حد كبير ، وهو يدس مسدسه فى حزامه ، ويهبط ليستقل سيارته (الجيب) ، فى طريقه إلى المطار الحربى القديم ، لتحمله هليكوبتر أخرى إلى موقع الحادث .. إلى مصر (مثلاً) ..

وفى أعماقه ، حاول أن يفترض على فكرة الإبرار الجوى ، بحجة أنه من المستحيل أن يخاطر المصريون بعمل جنونى كهذا ، خلال شهر (رمضان) ، الذى يعملون فيه إلى الدعة والاستكاته ، والإكثار من الصلوات والأدعية .

لن يقدموا حتماً على استنزافهم بعملية عسكرية ، فى هذه الأيام ..

ثم إنه لماذا يسقطون هليكوبتر الدورية ، ويفجرون كل هذه الشكوك ؟!

كان بإمكانهم إسقاط رجالهم ، قبل خروجها مباشرة ..

كان يبدل قصارى جهده ، لإبعاد الفكرة عن خاطره ..

ولكنها آتت تملأ ..

وبمنتهى الإلحاح ، راحت تفوس فى عقله وكيانه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وعندما أقلت به الهليوكوبتر ، كانت قد استقرت في وجدانه
تماماً ..

أنها عملية مصرية ..

مائة في المائة ..

★ ★ ★

« هل يعنى أننا قد فقدنا الملازم (أدهم) ؟ »

نطق النقيب (مدحت) العبارة في توتر بالغ ، وهو يختفى مع
المقدم (راشد) ، بين صخور الجبل ، فهز الأخير رأسه ، متمتماً :
- لا يمكننى الجزم .

هتف النقيب (مدحت) مبهوراً :

- هل رأيت كيف وثب نحو الهليوكوبتر ؟! يا إلهي ! لقد تابعت
تدريباته بنفسى لثلاثة أشهر ، وأبرك أنه متميز بحق ، ويمتلك
مهارات وقدرات مذهشة ، تفوق عمره بكثير ، ولكننى لم أراه يفعل
هذا قط من قبل .

تنهّد المقدم (راشد) ، وهو يغمغم :

- لو أنك تابعت ما يفعله لعام كامل ، مثلما فعلت أنا ، لأدركت
أن هذا الشاب كان يمتلك قدرات يعجز الشخص العادى عن
تصورها .

غمغم (مدحت) في توتر :

- كان ؟!

مطّ المقدم (راشد) شفّتيه ، وهز رأسه في أسف قائلاً :

- الله (سبحانه وتعالى) أعلم :

ثم تنهّد في عمق مرة أخرى ، وأضاف :

- المهم ألا يكون الأوغاد قد أبلغوا قيادتهم ، وإلا ..

قاطعه صوت هادئ ، يقول :

- إنهم لم يفعلوا :

التفت الرجال إلى مصدر الصوت في لهفة ، وهتف النقيب
(مدحت) في فرح :

- (أدهم) .. حمداً لله على سلامتك . كيف نجوت من
سقوط الهليوكوبتر ؟!

اندس (أدهم) إلى جوارهما ، وهو يجيب في بساطة :

- لقد قفزت منها ، قبل أن تهوى إلى الأرض

قال المقدم (راشد) في دهشة :

- ففزت منها ؟! بهذه البساطة ؟!

هز كتفيه ، وحاول أن يسترخي ، قائلاً :

- لقد وفقني الله (سبحانه وتعالى) .

حدث المقدم في وجهه لحظة ، بمزيج من الدهشة والانبهار ،
قبل أن يغمغم :

- ونعم بالله .

ثم عاد يسأله في اهتمام مبهور :

- ولكن كيف فعلتها ؟!

سأله (أدهم) :

- فعلت ماذا ؟!

أجابته للنقيب (مدحت) :

- كيف تعنقت بتلك الهليوكوبتر ، وهي تحلق فوقنا ؟!

صمت (أدهم) بضع لحظات ، ثم أجاب :

- كان ينبغي أن نمنعهم من إبلاغ القيادة بوجودنا .

قال المقدم (راشد) :

٤٠

- نحن نعلم لماذا ، ولكننا نسألك كيف فعلتها ؟! الواقع أن
الأمر بدا أول وهلة مستحيلًا تمامًا ، و ...

لم يستطع إكمال عبارته ، وكأنما لم يجد عمليًا ما يمكن أن
يضيفه ، فأطبق شففيه ، وراح يتطلع مع النقيب (مدحت) إلى
(أدهم) ، في ترقب ملهوف ، فتراجع هذا الأخير برأسه ،
ليسندة إلى الصخرة ، وراح عقله يسبح بعيدًا ..

« أعلى يا (أدهم) . حاول أن تقفز أعلى ، وأن تلتقط الكرة
في الهواء .. » .

« ولكنني تجاوزت المتر ونصف المتر بالفعل يا أهي ، والرقم
القياسي العالمي هو ... » .

« دعك من الأرقام القياسية .. اسمها .. انفضها عن عقلك ..
لا تجعلها تخدعك ، وتحذ من طموحك وغاياتك .. » .

« ولكنني مجرد بشر .. » .

« ومن أيراك ما حدود قدرات البشر ؟! إننا نصفق كل عام لبطل
رياضي ، حطم الرقم القياسي في مضماره ، ثم يفاجئنا بطل آخر ،
في العام التالي ، يتجاوزه ذلك الرقم الجديد ، وانطلاقه إلى
ما خلف حدود المنطق المحدود .. المهم هو المران يا ولدي ..
الإنسان يمكنه أن يكتسب أكثر مما يتصور ، بالإصرار والمران
وحدهما .. » .

استعاد ذهنه كل هذا ، وهو شارد البصر في صمت ، قبل أن
يخفض عينيه إليهما ، قائلاً في حزم :

- والدي علمني كيف أفعُلها .

هتف الاثنان في دهشة :

- والدك ؟!

أجاب في حزم أكبر :

- نعم .. والدي

همّ النقيب (مدحت) بإلقاء سؤال ، حول طبيعة عمل والده ،
ولكن المقدم (راشد) سبقه ، قائلاً :

- وماذا عن (منير) ؟!

أجابه (أدهم) في حزم ، يحمل رنة أسف وأسى .

- استشهد

عضّ النقيب (مدحت) شفّتيه ، وهزّ المقدم (راشد) رأسه ،
مغمغماً :

- إنا لله ، وإنا إليه راجعون .

تابع (أدهم) :

- لقد تأخرت لأدفن جثته ، وأخفى مظهره

ربّت المقدم على كتفه ، قائلاً :

- حسناً فعلت يا ولدي .. حسناً فعلت .

اعتدل (أدهم) في مجلسه ، وقال في اهتمام :

- المشكلة الحقيقية أن تمتدّ تحقيقاتهم ، حول سقوط
الهيوكوبتر ، إلى فحص القصة .

تساءل النقيب (مدحت) في قلق :

- هل تعتقد أنهم سيفعلون حقاً ؟! أعني أن الوقت متأخر ،
وغداً هو عيد الغفران بالنسبة لهم ، ولن تجد ضابطاً واحداً ،
يرغب في الاهتمام بأمر سخيف كهذا ، في يوم إجازته وعيده .
هزّ (أدهم) رأسه ، قائلاً :

- ربما يكون الإسرائيليون أوغاداً ، ولكنهم حتماً ليسوا
بالأغبياء ، وحادث كهذا ، عند واحد من أكثر معراتهم أهمية
وخطورة ، كفيل بإلغاء كل الإجازات وحتى الأعياد ، بالنسبة
للمسنونين عنه

وافقه المقدم (راشد) بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

- سيرسئون بعضهم حتماً

قال النقيب (مدحت) في حزم :

- لا بد أن نستعدّ لقنومهم إذن ، و

قاطعه المقدم (راشد) :

- وماذا ؟! أتسيت أنه لا ينبغي أبداً أن نشترك معهم ، قبل الساعة المحدودة ، مهما كانت الأسباب ؟!

قال النقيب (مدحت) في حدة :

- ماذا ستفعل إذن ؟! هل نجلس في انتظارهم ؟!

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول :

- يبدو أنه ليس أمامنا حل آخر ، فلو كشف هؤلاء الأوغاد وجودنا ، من خلال أي تحرك غير مدروس ، سيضئ هذا فشل الخطة كلها ، والقيادة تعتمد علينا تماماً ، في هذا الجزء من خطتها الشاملة .

تسأل المقدم (راشد) :

- وماذا لو قرروا تمشيظ القمة ؟!

وقع سؤاله عليهما كطعنة مباغطة ، فلم يحر أحداهم جواباً ..
أي جواب ..

* * *

سرت موجة من التوتر ، في جسد ضابط الموساد (براك عمتاي) ، وهو يتطلع من طائرته إلى حطام الهليكوبتر ، المنتثر على مسافة عدة أمتار ، من المدخل الشرقي لممر (متلا) ، وقد اتهمك الخبير في فحصه ، فأشار بيده إلى الطيار ، قائلاً في صرامة شديدة ، لم يكن لها ما يبررها ، من الناحية المنطقية :

- لا تهبط بالقرب منها ، حتى لا تفسد مراوذك أية أدلة :

أوماً الطيار برأسه إيجاباً ، ودار دورة كاملة حول المكان ، قبل أن يهبط على مسافة ثلاثين متراً من الحطام ، فوثب (براك) خارج الهليكوبتر ، وضم معطفه إلى صدره ، في حركة عصبية ، وهو يقطع المسافة في خطوات سريعة ، ويسأل خبير الحطام في صرامة :

- هل وجدت شيئاً ؟!

هز الرجل رأسه في حيرة ، مجيباً :

- لا يوجد أي سبب منطقي لسقوطها ، حتى هذه اللحظة ..
المحركات كانت تعمل بكفاءة ، وكل شيء يسير على ما يرام .

سأله (براك) :

- هم تم تبادل إطلاق نيران ، بأية وسيلة كانت ؟!

هز الخبير رأسه ، مجيباً :

- لا يوجد أي دليل على هذا ، وكتيبة حماية الممر لم تسمع

شيئاً ، كما أن الطبيب النفس لم يجد في جثث القتلى آثار طلقات نارية .. هناك فقط بعض الكدمات والمسحجات والإصابات ، الناشئة عن السقوط والارتطام حتماً .

انعقد حاجبا (براك) ؛ وهو يتطلع بضع لحظات إلى الحطام ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلى أعلى ، متسائلاً في خشونة :

- هل فحص أحد القمة ؟

قال الخبير في دهشة :

- وما شأن القمة بالأمر ؟

لم يكن (باراك) يمتلك جواباً منطقياً للسؤال .

كان يمتلك شعوره فحسب ..

مجرد شعور ..

ومخاوف ..

وغريزة تنمو مع الوقت ، والخبرة ..

غريزة الذئب ..

لذا ، فقد قال في غضب محتد :

- هل تم فحصها أم لا ؟

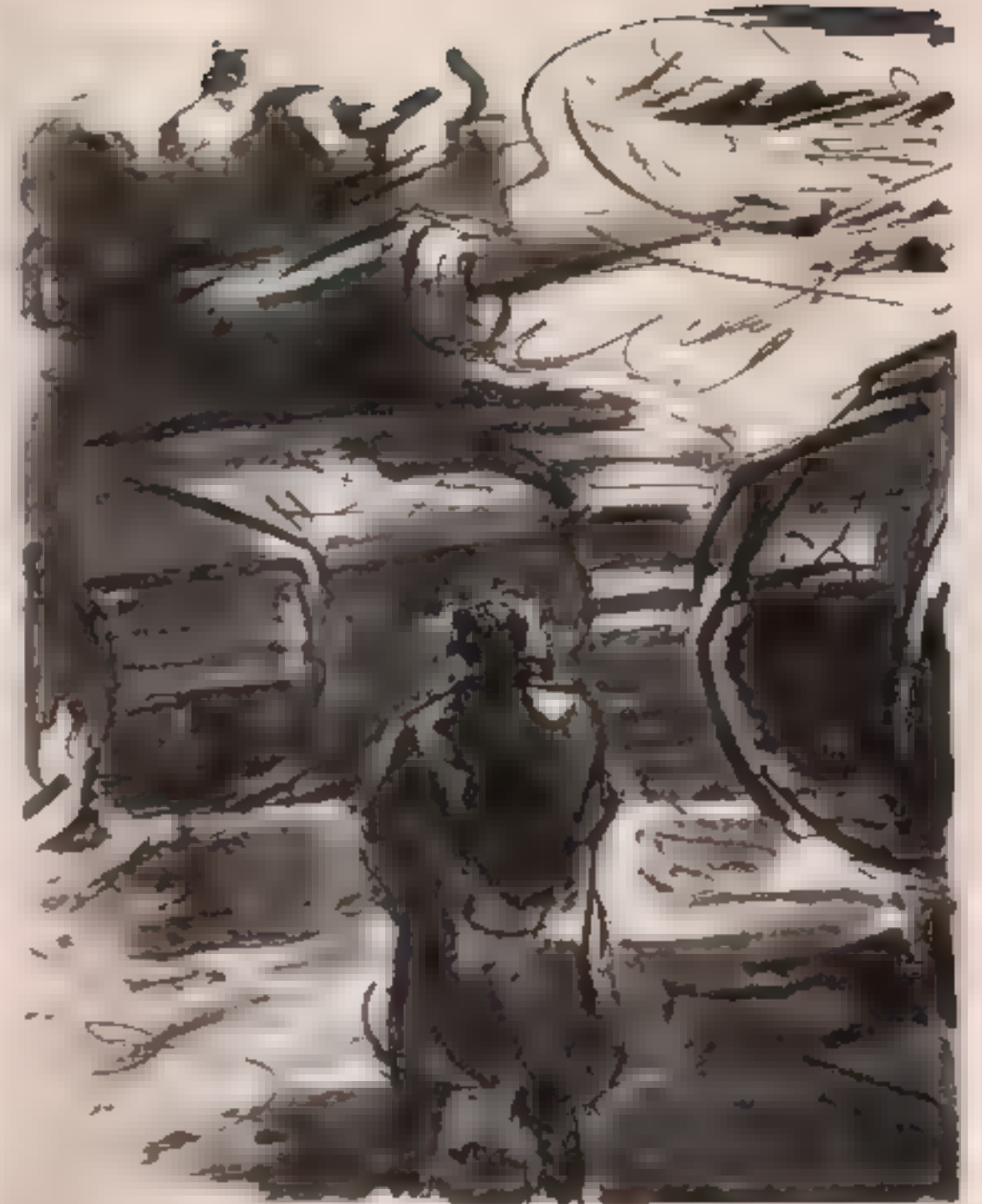
هز الخبير كتفيه ، قائلاً :

- ليس هذا من شأني . من كتيبة الحراسة :

اتفقد حاجباً (باراك) في غضب أكثر ، وقال .

- كان ينبغي أن تكون هناك كتيبة أخرى على القمة

ابتسم الخبير في خبث ، وهو يقول :



فؤاذ (باراك) خارج الهليكوبتر ، وحسم معطفه إلى صدره ، في حركة

عصبية ، وهو يقطع المسافة في خطوات سريعة ..

- على تلك التضاريس والصخور ؟

قال (باراك) فى صرامة .

- هل تعتقد أنها ستوقف المصريين ، لو فكروا فى احتلال
الممرات ؟

فهقه الخبير ضاحكاً ، وهو يقول :

- المصريون ؟ المصريون لن يحاربوا ، ولو بعد ألف عام
يارجل .

رمقه (باراك) بنظرة باردة ، دون أى تعليق ، ثم تجاهله
على نحو مستفز ، وهو يتجه نحو قائد كتيبة حراسة الممر ،
قائلاً فى صرامة :

- هل وضعت بعض رجالك على القمة ؟

سأله الرجل فى حذر :

- أية قمة ؟

أشار (باراك) بيده إلى أعلى ، وهو يقول فى حدة :

- وهل توجد قمة غيرها ؟

التفت حاجباً قائد الكتيبة ، وهو يقول :

- القيادة لم تأمر بهذا قط ، لأنها تدرك استحالة هذا ، بسبب
صعوبة الـ

قامطعه (باراك) فى غضب :

- أية حماقة هذه ؟! منذ متى كانت صعوبة التضاريس عائقاً ،
أمام العمليات الحربية الانتحارية ؟! ماذا ستفعلون إذا ما باغتمكم
المصريون بهجوم انتحارى هنا ؟! هل ستخبرونهم أن التضاريس
صعبة ؟!

انتقل غضبه إلى قائد كتيبة الحراسة ، وهو يقول فى حدة :

- لو أنك راجعت كل ما لديك من معلومات ، باضابط (الموساد)
المتحذلق ، لأمركت أن المصريين لم يقوموا بعملية واحدة هنا ،
منذ وضعت حرب يونيو أوزارها ، وكل الإحصائيات والدراسات
تؤكد ، أنهم لن يقدموا على مثل هذه الحماسة ، إلا فى حالة
إقدامهم على شن حرب شاملة .

ثم مال نحوه فى تحد ، مستطرداً :

- هل تقول معلوماتك إنهم سيقدمون عليها ؟!

تبادل كلاهما نظرة متحدية صارمة مع الآخر ، قبل أن يقول
(باراك) :

- يبدو أنك قد نسيت أن هليوكوبتر الدورية قد سقطت فى
دائرة اختصاصك .

اعتدل الرجل ، وهز كتفيه فى تحد ، قائلاً :

- دائرة اختصاصى أرضية ، ونيسبت جويه ، ي ضبط
(الموساد) .

تضاعف غضب (باراك) ، وهو يستدير بحركة حادة ،
ويعود إلى الهليكوبتر ، التى أتى بها ، ويثب داخلها ، قائلاً
للطيار فى صرامة عصبية :

- هيا . ارتفع بنا يا رجل . أريد تفقد القمة شخصياً
ارتفعت الهليكوبتر على الفور ، محلقة نحو القمة ،
و (باراك) داخلها أشبه بقبلة منزوعة الفتيل ، توشت على
الانفجار ..

لم يكن لديه أدنى دليل ، على ذلك الشعور المتصاعد فى
أعماقه ..

بل على العكس . الدلائل كلها تؤكد أنه مخطئ

الهليكوبتر لم تنفجر فى الجو ..

وركابها لم يصابوا بأية طلقات نارية ..

أو حتى بأسلحة بيضاء ..

كان سقوطاً حراً ، أدى إلى انفجاره فوق رمال (سيناء)

لا يوجد دليل واحد على اعتداء مباشر ..

وعلى الرغم من هذا ، فما حدث لا يروق له أبداً

هناك ألف علامة استفهام ، تحيط بالموقف كله .

لماذا سقطت الهليكوبتر ، ما دام كل شيء فيها كان يسير
على مايرام ؟!

لماذا لم يحاول ركبها إرسال إشارة استغاثة واحدة ؟!

ولماذا فوق العمر بالتحديد ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

ارتفعت الهليكوبتر فى سرعة ، حتى بلغت القمة ، قبل أن
يجد جواباً لأى من أسئلته ، وقال الطيار فى هدوء :

- هل نطوف بالمكان كله ؟!

أجابه فى صرامة :

- بالتأكيد .

ثم التقط من جيب معطفه منظاراً خاصاً بالرؤية الليلية ،
ووضعه على عينيه ، وراح يفحص به القمة كلها

وكما تلقوا تدريباتهم ، كمن الأسود فى مخابنهم بين الصخور ،

مستترين بشباكههم المموهة ، التي فربوها في المكان ، ببراعة
وبدقة تمتحقان الإعجاب ..

لذا فقد بدا كل شيء ، بالنسبة لعوني (باراك) ، هائلاً مستقراً ،
تحت ضوء القمر الخافت ، في ليلة العاشر من رمضان ..

وعلى الرغم من هذا ، فلم يشعر بالارتياح ..
أبداً ..

كل ما فعله هو أن أشار بيده في عصبية ، قائلاً للطيار :
- عد بنا يا رجل .

ولم يكد الطيار يدور بالهليكوبتر عائداً ، حتى أضاف في
توتر :

- سنكرّر المحاولة في ضوء النهار .

نطقها ، وكل نبرة في كيانه تشعر بتوتر عجيب ..

توتر بلا سبب واضح ..

وبلا حدود ..

* * *

« هل تعتقدان أنه سيعود ؟ »

نطق المقدم (راشد) مسؤاله في توتر ، وهو يتابع ابتعاد
الهليكوبتر الإسرائيلية نحو الشرق ، فأطلق النقيب (مدحت)
من أعماق صدره زفرة حارة ، وهو بجيب :

- أخشى أنه من المحتمل جداً أن يفعل .

أما (أدهم) ، فقد صمت لحظة ، ثم قال في حزم :

- لو قننى في مكانه لفعلت حتماً .

ثم أشار إلى السماء ، متابعاً :

- عندما تشرق الشمس .

هزّ المقدم (راشد) رأسه في توتر ، وقال :

- هذا أمر خطير للغاية ، فالشباك المموهة ، التي أخفت

وجودنا ، على ضوء القمر ، لن تفلح في خداعهم ، تحت أشعة
الشمس .

عض (مدحت) شفطيه في حلق ، وهو بهتف :

- ياله من موقف مخيف ! كم أكره اضطرارنا للاختباء هكذا ،

من هؤلاء الحقراء .. إبنى أتوق للاشتباك معهم ، وتحطيم غرورهم
المخيف ، وخطرمستهم المتعالية .

قال المقدم (راشد) في صرامة :

- كلنا هذا الرجل ، ولكنك تعلم مثلفنا أن الكشف عن وجودنا ،

قَبِيل الوقت المحدود ، لن يعنى فشل عمليتنا فحسب . ولكنه سيعنى أيضاً تنبيه الإسرائيليين إلى ما يدور فى الخفاء ، لأن دراساتهم تجعلهم حتم يدركون ، أن عملية إززال فرقة من الصاعقة على قمة مصر (مثلاً) ، لا يمكن أن تحدث ، إلا فى حالة إقدام (مصر) على حرب شاملة ، ولو أدركوا هذا ، قبل ساعات من ساعة الصفر ، سنفقد عامل المفجأة تماماً ، مما يعرض رفاقنا فى المعمر الآخر لخطر داهم ، ويعرض (مصر) والعالم العربى كله لضواع فرصة نادرة للثأر والتفوق ، وتحطيم أسطورة جيش (إسرائيل) الذى لا يقهر .

وصمت لحظة ، ثم ربت على كتفه ، متابعاً :

- ثم إنها مسألة وقت يا بطل .. المواجهة التى طال شوقنا وانتظارنا لها ستبدأ بعد ساعات قليلة .

نهض (أدهم) من مكانه ، قائلاً فى حزم :

- المهم أن نحسن استغلال هذه الساعات ..

سأله المقدم (راشد) فى حيرة :

- ماذا تعنى أيها الملازم ؟

- أشار (أدهم) بيده ، مجيباً :

- أعنى أنه من الواضح أن أحدهم يشعر بالشك ، ويتميز بالحنر والفتق الزالدين ، ومن المؤكد أنه سيقوم بمحاولة أخرى لتمشيط القمة ، بعد شروق الشمس .

والتقط نفساً عميقاً ، قبل أن يضيف بكل الحزم :

- وهذا يعنى أنه علينا أن نعمل ، بمنتهى الهمّة والنشاط ، خلال ما تبقى من ساعات الليل ، وإلا

لم يتمّ عبارته ، ولكن كل من سمعه فهم ما يعنيه .

فأما أن يجدوا وسيلة لتفادى ما سيحدث فى الصباح ، قبل حلول ساعة الصفر ، أو تكون العواقب وخيمة ..
للغاية

كانت صرخة مدير مكتب (الموساد) تخرق أذنى (باراك) ، عبر أسلاك الهاتف ، وهو يقول بمنتهى الغضب :

- قنابل خارقة ؟! هل جننت يا رجل ؟! هل تعلم أى رد فعل يمكن أن نواجه ، لو ألقينا القنابل الخارقة عشوائياً ، على قمة المعمر ؟!
قال (باراك) فى صرامة :

- إننى أفكر فى رد الفعل الذى سيواجهنا ، لو كان المصريون هناك كما أتصور .

هتف به رئيسه فى حدة :

- وما الذى يدفعك إلى هذا التصور ؟! هل رأيت أحدهم ؟!
أليك أية معلومات ، لم تخبرنى بها ؟!

اتعتقد حاجبا (باراك) فى توتر بالغ ، وهو يقول :
- كلاً .

ثم استترك فى عصبية :

- ولكن الاحتمال قائم ، ولا يمكننا إهماله .. من الناحية الرسمية على الأقل .

طال صمت رئيسه هذه المرة ، وكأنما يحاول دراسة الموقف ، أو السيطرة على أعصابه ، قبل أن يقول :

- (باراك) .. عندما تشرق الشمس ، ستحتفل (إسرائيل) كلها بعيد (كيبور) .. أهم أعيادنا الدينية ، ونصف قوات الجيش فى إجازة رسمية ، ثم إنه يوم السبت ، وأنت تطعم كم يفيض المتدينون العمل فى هذا اليوم ، إلا لضرورة قصوى .

زمجر (باراك) ، قائلاً :

- إننى أعتبر هذا الأمر ضرورة قصوى .

صمت رئيسه لحظات أخرى ، ثم قال فى صرامة :

- لو أننا ألقينا القنابل الحارقة على قمة الممر ، سنشيع عاصفة من التساؤلات والقلق ، ولن يرحمنا أحد ، لو كنا مخطئين .

قال (باراك) بنفس الصرامة :

- سأتحمل المسؤولية كاملة . وسأوقع كل الأوراق اللازمة لذلك ..

حمل صوت رئيسه الكثير من الحيرة ، وهو يقول :

- عجباً ! لماذا تجازف بأمر كهذا ؟

ولم يجر (باراك) جواباً هذه المرة ..

إنه لا يدري حتى لماذا يفعل كل هذا ؟

لماذا يخاطر بسمعته وتاريخه ، من أجل شكوك بلا دليل ؟

لماذا ؟

ولكن شيئاً ما فى أعماقه كان يقاتل من أجل هذا ..

شيء لا يدري كنهه بالضبط ..

ولكنه يسيطر على كل مشاعره ..

وكل إرادته ..

وعلى الرغم من أنه لا يمتلك دليلاً واحداً ، فقد أجاب رئيسه

فى حزم :

- أنا واثق .

تنهّد رئيسه ، وقال :

- فليكن يا (براك) .. وقع الأوراق اللزجة ، وسأبحث عن
طيار واحد ، يقبل التنازل عن إجازته ، والقيام بالمهمة ، بشرط
واحد ..

سأله (براك) في حذر :

- وما هو ؟

أجابته رئيسه في صرامة :

- ألا تبدأ تلك العملية السخيفة ، إلا بعد شروق الشمس .
فلست أميل إلى إشعال النيران في قلب الليل ، ليراها العالم كله .
هل تفهم ؟

غمغم (براك) ، محاولاً السيطرة على انفعاله :

- بكل تأكيد .

قال رئيسه ، قبل أن ينهي المحادثة :

- ولا تنس إخبار كتيبة الممر ، أنها مجرد تجربة
أمنية .

التقط (براك) نفساً عميقاً ، وهو بعيد سماعة الهاتف ،
واتعقد حاجباه في شدة ، وهو يشعر بموجة من الانفعالات في
أعماقه ..

وبتوتر لا محدود ، ألقى نظرة على ساعته ، التي أشارت
عقاربها إلى الثانية والنصف صباحاً ، وراح قلبه يخفق في
عنق ..

لقد وصل أخيراً إلى ما يبتغيه ..

سيشعل النيران في قمة الممر ..

وسيحيل المكان كله إلى جحيم ..

جحيم حقيقي .

بهذا فقط يطفئ شعلة الشك والقلق في أعماقه .

إلى الأبد .



٤ - الجسيم ..

لم تكد شمس المساس من أكتوبر ١٩٧٣ م تشرق ، على (مصر) كلها ، حتى بدأت سلسلة من النشاطات والتحركات ، التي شملت كل قيادات الجيش ، والشرطة ، والمخابرات ..

وعلى الرغم من أن اليوم قد بدأ كأحد أيام (رمضان) المعتادة ، إلا أن حجرة القيادة في مركز العمليات العسكرية الرئيسى ، قد شهدت وصول وزير الحربية ، وقائد الأركان ، وقادة كل الفرع الجيش ، منذ الساعة صباحاً ..

وفى تمام الساعة والنصف ، انضم إليهم مدير المخابرات العامة ، ومدير المخابرات الحربية ، وقائد الشرطة العسكرية ..

وفى الثامنة بالضبط ، وصل رئيس الجمهورية ..

وبعد وصوله ، أغلقت أبواب مركز العمليات ، وبدأ العد التنازلى للخطة ..

خطة الهجوم الشامل ..

وفى اهتمام لم يخل من التوتر ، أشار رئيس الجمهورية (أنور السادات) إلى خريطة القناة و (سيناء) ، وهو يقول :

- العبور ينبغي أن يبدأ فى الساعة ألف وأربعمائة (*) .. إننا نعتد تماماً على الضربة الجوية الأولى ، التي يفترض أن تشمل فاعلية سلاح الطيران الإسرائيلى ، إلى أقصى حد ممكن ، وبعدها متبداً موجة العبور .

ثم التفت إلى مدير المخابرات ، متمسلاً :

- هل اتخذتم اللزم ، بشأن أنابيب النابالم ؟

أجاب مدير المخابرات الحربية :

- الضفادع البشرية تقوم بعملها الآن ، لمد فتحات الأنابيب ، تحت مياه القناة ، ولدينا فرقة أخرى فى قلب (سيناء) ، قامت بقطع الخراطيم المدفونة تحت الرمال .

لوما الرئيس برأسه ، قائلاً :

- عظيم .. عظيم ..

ثم التفت نفساً عميقاً ، وهو يسأل فى اهتمام شديد :

- وماذا عن لولائنا فى العمرات ؟

أجاب قائد الساعة :

(*) ثنية ظهراً بلعة الصكرين

- كل شيء على ما يرام ، حتى هذه اللحظة يا سيادة الرئيس .
فلن يتم رصد أية اشتباكات مباشرة ، أو غير مباشرة ، ولن
يتخذ الإسرائيليون أية إجراءات ، توحى بأنهم قد أدركوا طبيعة
الموقف ، ولكن ...

سأله الرئيس في توتر :

- ولكن ماذا ؟

تردد قائد الصاعقة لحظة ، قبل أن يجيب :

- أمس ، سقطت هليوكوبتر إسرائيلية ، عند معر (متلا) ،
ولقد بدأ الإسرائيليون تحقيقاتهم على الفور ، ولقد أسندوها
إلى ضابط موساد ، يدعى (باراك عمتاي) .

هاتف مدير المخابرات العامة :

- يا إلهي !

التفت إليه الرئيس ، وسأله في قلق :

- هل تعرف الرجل ؟

أجابه مدير المخابرات في حزم :

- (باراك عمتاي) واحد من أخطر وأذكى ضباط (الموساد) ،
وأكثرهم براعة وشراسة ، وهو خبير في الشؤون العسكرية

المصرية ، ونديه قدرة مدهشة على الاستدلال والاستنتاج ، كما
أنه يتميز بالإصرار والعناد ، حتى إنه لم يخسر عملية واحدة في
حياته قط .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يتسائل :

- هل تعتقد أنه قادر على كشف أمر أولادنا ؟

صمت مدير المخابرات العامة بضع لحظات ، قبل أن يجيب
في انقباض حازم :

- حتماً .

فجرت كلمته موجة عنيفة من القلق ، في نفوس الجميع ،
فأضاف في سرعة :

- ولكنها مسألة وقت .

هز الرئيس رأسه ، مغفماً :

- بالضبط .. مسألة وقت .

ثم أطلق زفرة أخرى ، قبل أن يضيف في توتر :

- المهم أن يدرك أولادنا عند الممرات هذا .

كان الرئيس يشعر برغبة عارمة في تدخين غليونه الشهير ، لولا
صيام (رمضان) ، لذا فقد نوح بيده ، وهو يستدير إلى قائد القوات
الجوية ، متسائلاً ، وكأنما يرغب في تحويل مدار الحديث .

- والآن ماذا عن ضربتنا الأولى ؟! هل تدرك أنها قد تحسم أمر الحرب كلها تقريباً ؟!

في نفس الوقت ، الذي راح فيه قائد القوات الجوية يجيب تساؤل الرئيس ، كانت عقول الحاضرين جميعهم تسبح في تساؤل واحد ..

تُرى هل يمكن أن تمضي لزمة مر (متلا) هذه بسلام ؟!
هل ؟!

مطّ الطيار الإسرائيلي المنتدب للمهمة ، شفتيه في حلق ، وهو يشير إلى (باراك) ، قائلاً :

- لست أرى بالضبط ما الذي تهدف إليه ، من مهمة مخيفة كهذه يا ضابط (الموساد) ، ولكنني أرجو أن ينتهي كل شيء في سرعة ، حتى يمكنني اللحاق بخطيتي ، والاحتفال معها بالعيد .

أجابه (باراك) في صراحة :

- قم بعملك جيداً ، وسينتهي كل شيء بسرعة يا رجل .

ثم ألقى نظرة على ساعته ، مضيفاً في حدة :

- ولقد أضعت وقتاً ثميناً بالفعل ، فهي الثامنة والنصف الآن .

٦٤

بدا الضيق على للطيار ، وهو يقول :

- إنه وقت مناسب ، للقيام بمهمة غير ذات معنى .

ثم سأله في صرامة ساخطة ، وهو يرتدى خوذته :

- هل تتوى قصف القمة كلها ؟!

أجابه (باراك) :

- أريد أن أشعل عليها جحيمًا حقيقيًا .

ابتسم الطيار في سخرية ، قائلاً :

- هل كنت تهوى العبث بعيدان الثقب في طفولتك ؟!

رمقه (باراك) بنظرة نارية ، قبل أن يبتعد بخطوات سريعة ، قائلاً :

- هيا .. قم بعملك يا رجل ، وسنتبعك بالهليكوبتر ، لنرى ما فعلته .

رفع الطيار يده بتحية عسكرية ساخرة ، وهو يقول :

- علم وسينفذ .

ثم أسرع إلى طائرته ، وقفز داخلها ، وأشعل محركاتها ، وهو يطلق كوة كابينة القيادة في إحكام ، في حين استقل (باراك) الهليكوبتر ، وهو يقول للطيار :

٦٥

- هل سبقنا كثيراً ؟

هزّ طيار الهليكوبتر كتفيه ، قائلاً :

- بالتأكيد .. (الفانتوم) تنطلق بضعفى سرعة الصوت ،
وسرعتنا القصوى لا تبلغ ثلث سرعتها .

ثم أدار المحركات ، وارتفع بالهليكوبتر ، متابعاً :

- وهذا يعنى أنه سيبلغ الهدف ، ويقوم بمهمته ، ويعود
بالفعل إلى القاعدة ، قبل أن نبلغ نحن منتصف المسافة إلى قمة
الممر .

نطقها ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها الطائرة (الفانتوم)
نحو الهدف ..

نحو ممر (مثلاً) ..

وقالدها يحمل الأمر بمهمة محدودة ..

أن يحيل القمة إلى قطعة من الجحيم ..

بحق ..

* * *

تحرك المقدم (راشد) بمنتهى الحفة ، بين صخور القمة ،
وهو يشير بيده إلى رجاله ، إشارات يفهمها كل منهم جيداً ،

حتى يتخذوا مواقعهم الجديدة ، قبل أن ينزلق بين الصخور إلى
مكمن قريب من المنحدر ، قائلاً للنقيب (مدحت) :

- كل شيء على ما يرام .. الرجال أخذوا القمة تماماً ، واختفوا
بين صخور المنحدر .. الواقع أن أفكار ذلك الملازم مدهشة بحق .

تنهّد النقيب (مدحت) ، مغفماً :

- إنه يبهرنى . صحيح أن الرجال قد بذلوا جهداً كبيراً ،
لإنشاء تلك المخاين ، فى الأجزاء المنحدرة من القمة ، وأن
استقر لهم فيها يرهقهم أكثر ، خاصة وأنهم يصرون على
مواصلة صيامهم ، إلا أنهم بالتأكيد أكثر أماناً ، لو قام
الإسرائيليون بتمشيط القمة .

تنهّد المقدم بدوره ، قائلاً :

- كل ما نحتاج إليه هو بعض الوقت يارجل ، فما إن تشير
عقارب الساعة إلى ألف وثلاثمائة وخمسة وأربعين ، حتى
نذيبهم من الويل ما لم يهاجمهم ، حتى فى أبشع كوابيسهم .

أمسك النقيب (مدحت) مدفعه الآلى فى قوة ، قائلاً :

- كم أحلم بقوم هذه اللحظة .

رَبَّتْ (راشد) على كتفه فى قوة ، قائلاً :

ستأتى يا رجل .. ستأتى بإذن الله ورعايته (عز وجل) ..

ثم اعتدل مضيقاً في حزم :

- والآن احرص جيداً على رعاية طاقمك ، وسأعود أنا إلى طاقمي ، حتى تحين ساعة الجسم .

كانت مجموعة الصاعقة قد انقسمت إلى ثلاث فرق ، يقود كل منها أحد الضباط ، ويكمن مع رجاله في جانب من الجوانب المنحدرة من الجبل ..

وفي المجموعة التابعة لـ (أدهم) غمغم أحد الجنود في عصبية :

- لقد سلمت الانتظار إنا هنا لنقاتل ، لا لنختبئ .

أجابه (أدهم) في هدوء :

- لا تتعجل يا بطل .. ما هي إلا ساعات ، وتُسبغ كل اللهفة في أعماقك ..

لقد انتظرنا لسنوات ، ولن يضيرنا الانتظار لساعات أخرى .

غمغم الرجل :

- صدقت يا سيدي .. صدقت .

سأل جندي آخر في لهفة :

- قل لي يا سيادة الملازم : كيف فعلتها أمس ؟!

اتعقد حاجباً (أدهم) في صمت ، فهتف آخر مبهوراً :

- إنا لم نصنق أعيننا عندك .

وقال رابع :

- الواقع أننا ندرك من التدريبات ، أنك أكثرنا براعة يا سيدي ، ولكن ما فعلته أمس كان .. كان ..

لرتج عليه ، ولم يحد التعبير المناسب ، فهتف خامس :

- مذهلاً ..

وأضاف سادس في حماس :

- وفوق طاقة البشر !

أجابه (أدهم) في حزم :

- ومن أراك ما حدود طاقة البشر .

سأله الأول :

- هل تعني أنه من الممكن أن يبلغ أحدنا هذا ؟!

أجابه في حزم أكبر :

- بالتأكيد

سأله آخر في لهفة :

- كيف ؟

أشار (أدهم) بيده ، قائلاً :

- بالمران والتدريب المستمر ، والصبر ، والبعد عن كل ما يسئ إلى جسدك وقدراته ، كالخمور والتدخين ، والإفراط في الطعام أو الشراب ، أو ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع فجأة هدير طائرة تقترب ، فهتف بالرجال :

- اختبئوا .

أسرع الجميع يختفون في مكانهم ، بين صخور المنحدر ،

و ...

وفجأة ، وبلا مقدمات أو توقعات ، دوت الانفجارات ..

الانفجارات متتالية ، ارتج لها الجبل كله ، واشتعلت معها النيران في قمته ، التي جرت بين صخورها مادة (القابالم) الحارقة ، كحجم أطلقها بركان ثائر ..

وقفز الرجال إلى أسلحتهم ، صارخين :

- حانت لحظة القتال .

ولكن (أدهم) صاح بهم في صرامة :

- إياكم أن يطلق أحدكم رصاصة واحدة .

صرخ أدهم في غضب :

- ولكنهم يقتلوننا .

صرخ فيه (أدهم) :

- فليفعلوا .. دعهم يقتلوننا .. فلو أطلقنا رصاصة واحدة ، ستموت (مصر) كلها .

وحمل صوته كل حزم وصرامة الدنيا ، وهو يضيف :

- (مصر) يا رجال .. (مصر) .

كادت القنابل تدوى في كل مكان ، والنيران تشتعل كجحيم حقيقي ، وتهدد كلاً منهم بموت محتوم ، إلا أنهم تبادلوا نظرة متوترة صامتة ، ثم خفض كل منهم سلاحه ..

واستسلم لقدره ..

من أجل (مصر) ..

واقترب دوى الانفجارات أكثر .

وأكثر ..

وأكثر ..

وعض الرجال شفاههم في غيظ ، وغضب ، ومرارة ،
وكادت أصابعهم القوية تقتصر أسلحتهم .

ثم جاء الانفجار الأخير أكثر قربا ..
وعنفًا ..

وتفجرت الصخور المحيطة بهم في عنف ..
وصرخ (أدهم) :

- تماسكوا يا رجال .. تماسكوا ..

تدفقت المادة الجيلاتينية الحارقة حولهم ، وامتزجت بدماء طاهرة
غزيرة ، تناثرت في كل مكان ، وارتفعت صرخات وتأوهات
مكتومة ، وشعر (أدهم) بآلام رهيبة في ساقه ، وهو يثب إلى
الخلف بحركة غريزية ..

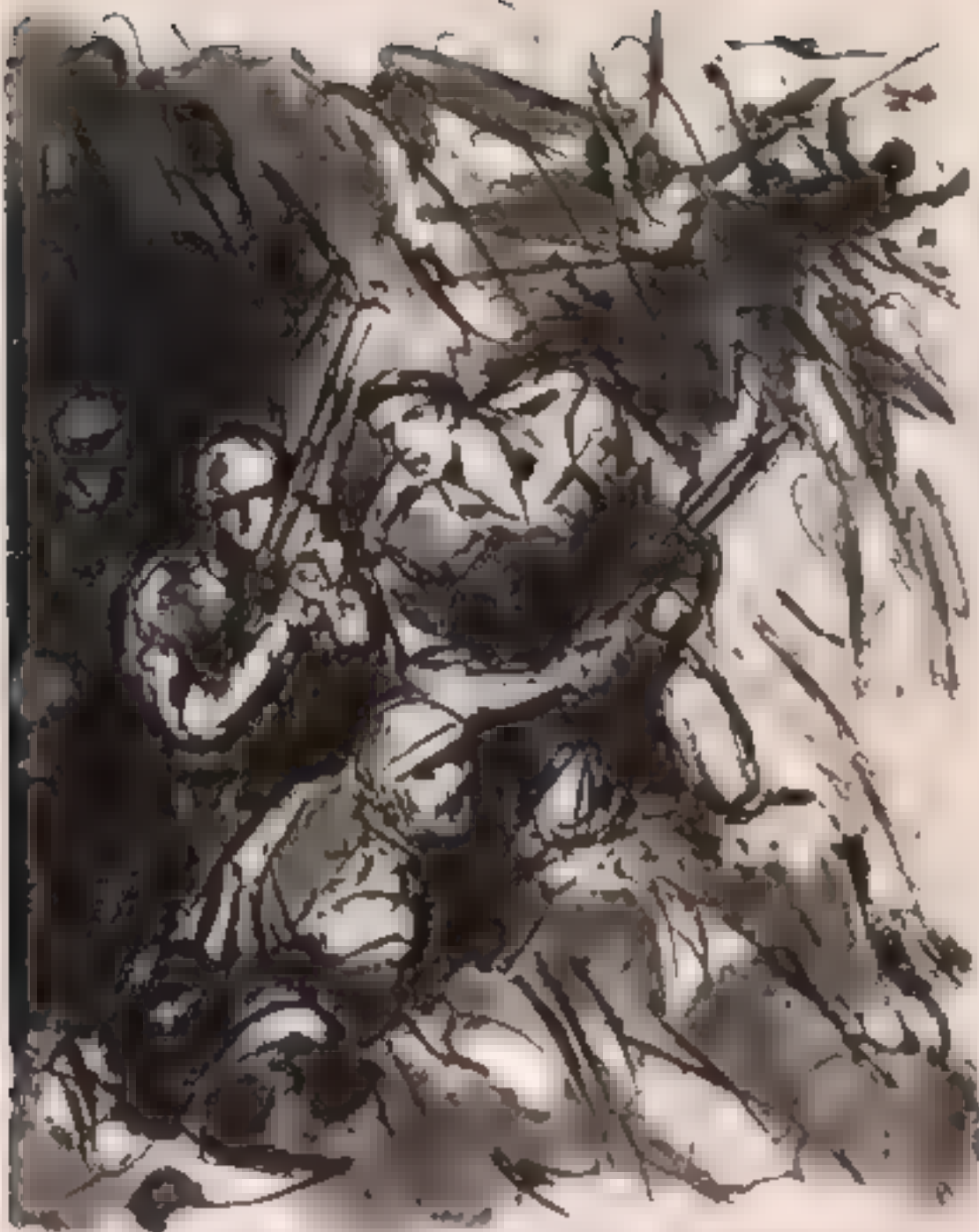
ثم دوى انفجار آخر ..

وطار جسده عاليًا ..

ثم هوى فوق الصخور بعنف

آلام رهيبة ، سرت في كل جزء من جسده

وصوت شيء يتحطم ، بنغ مسامعه ، وأطلق صرخة نارية
في أعماقه ..



وعلى الرجال شفاههم في غيظ ، وغضب ، ومرارة ، وكادت أصابعهم القوية
تقتصر أسلحتهم ثم جاء الانفجار الأخير أكثر قربا وعنفًا وتفجرت
الصخور المحيطة بهم في عنف !!

ونيران اشتعلت في كم زيه العسكري ..

ومن بعيد ، بدت له طائرة (فاتوم) (ف - ١٥) ، تتطلق
مبتعدة ، بعد أن أنهت مهمتها ..

ونهض (أدهم) في سرعة ..

واتعقد حاجباه في شدة ..

لقد كان يواجه جحيماً حقيقياً ، فوق قمة المعر .

كتلة من النيران راحت تتراقص ، بمنتهى العنف ، في كل
مكان أمامه ..

وبكل توتر الدنيا ، اندفع عائداً إلى مكانه ، ليضمن على
رجاله ..

وكان الموقف رهيباً بحق ..

أربعة من الرجال لقوا مصرعهم ، بفعل الانفجارات والقنابل
الحارقة ..

ورجلان أصيبا بعنف ..

وبكل القلق ، انطلق يعبر المكان ، وسط الحطام والنيران ،
وهو يهتف :

- سيادة المقدم سيادة النقيب . أنتما بخير ؟!

برز المقدم (راشد) أمامه ، في حالة سيئة ، ونراعه
للمصري تتزف في غزارة ، وهو يهتف :

- هؤلاء الأوغاد أشعلوا جحيماً هنا .. لقد خسرت رجلين ،
ولدي ثلاثة مصابون .

هتف (أدهم) :

- وماذا عن النقيب (مدحت) ؟

برز أحد جنود الصاعقة من الممكن الثالث ، وهو يهتف :

- سيدي .. سيادة النقيب (مدحت) .. إنه .. إنه ..

قبل أن يتم عبارته ، كان (أدهم) والمقدم (راشد) يهرعان
إليه ، والأخير يهتف في ارتجاع :

- (مدحت) .. يا إلهي !! يا إلهي !

واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدق في النقيب (مدحت) ،
الراقد على ظهره وسط الصخور ، وقد احترق ساعده ، وملأت
صدره بقعة دم ضخمة ..

وما إن وقع بصره عليهما ، حتى غمغم :

- لرأيتما ما فعله هؤلاء الأوغاد ؟!

وثب إليه (أدهم) يفحصه في توتر ، في حين أشار إليه
(راشد) بيده ، قائلاً :

- لا تتحدث يا (مدحت) .. الصمت .

هزأ (مدحت) رأسه ، وهو يقول في ضعف :

- لا فائدة يا رجل .. لقد ظفروا بي ، دون أن يدركوا هذا .

هل تعلم أنني قد فقدت ثلاثة رجال ، وندى آخر مصاباً بشدة ؟^{١٤}

ثم عض شفتيه في مرارة ، متابعاً :

- الشيء الوحيد الذي يؤلمني ، هو أنني لن أشارك في المواجهة المباشرة ..

قال (أدهم) في خفوت :

- الله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم .

حاول النقيب (مدحت) أن يبتسم ، ولكن ذلك الألم في صدره جعله يسعل مرتين ، تفاعرت معهما الدماء من بين شفتيه ، قبل أن يقول في ضعف وآلم :

- لا تحاول خداعي أو خداع نفسك يا صديقي . كلاماً يعلم أنها النهاية .

ثم أمسك معصم (أدهم) ، وقال :

- ولكن عدني ألا تذهب روحي بلا طائل . عدني أن تقاتلوا كالأسود ، عندما تحين اللحظة الحاسمة .

انفجرت شفتا (أدهم) ليقولها ، ولكن حناجر الرجال سبقتهم ، وهم يقولون في آن واحد ، بكل الحزم والعزم والقوة :

- نعدك يا سيادة النقيب .

غمغم المقدم (راشد) في تأثر :

- هل سمعتم ؟

انصبت ابتسامة النقيب (مدحت) ، وهو يتمتع في خفوت شديد :

- بالتأكيد .

ودون أن تتلاشى ابتسامته ، تراخي جسده كله بين أيديهم ، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها ..

ولثوان ، لم ينبس أحد الرجال بحرف واحد

ودان عليهم صمت رهيب ، لا تقطعه إلا فرقة أسنة الذهب ، المتطايرة على القمة في عنف ..

ثم قطع المقدم (راشد) ذلك الصمت ، وهو يقول في خشوع :

- بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ ولا تحسب الدين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ [صدق الله العظيم]^(١٥)

(*) القرآن الكريم - الآية ١٦٩ م من سورة (آل عمران)

نهض الرجال جميعاً ، حتى المصابون منهم ، والتفوا حول
جثته في صمت ، و ...

وفجأة ، التقطت أذانهم أزيز الهليكوبتر ، فهتف المقدم
(راشد) :

- عودوا إلى مكانكم .. سننقسم إلى فرقتين ، وفقاً لخطة
الطوارئ .. على المنحدر الشمالي الجنوبي .. هيا ..

انقسم الرجال إلى قسمين بالفعل ، وانطلقوا يعدون في
الاتجاهين ، نصفهم يتبع المقدم (راشد) ، والنصف الآخر يتبع
الملازم أول (أدهم) .

وفي نفس اللحظة ، التي اختفوا فيها في مكانهم ، برزت
هليكوبتر (باراك) ..

وفي دهشة جنلة ، هتف طيارها :

- يا للبراعة ! الرجل أحال القمة إلى جحيم حقيقي .

تتم (باراك) ، وهو يحمل آلة تصوير حديثة ، ويلتقط بها
صور المكان :

- هذا صحيح .

كانت ألسنة اللهب تضيء على القمة المشتعلة مشهداً رهيباً ،
وتخفي تحتها آثار الرجال ، ولكن (باراك) راح يلتقط المزيد
من الصور ، قبل أن يشير إلى الطيار ، قائلاً في حزم :

- هيا .. عد بنا إلى القاعدة .

سأله الطيار ، وهو يدور بالهليكوبتر :

- هل اطمأن قلبك أخيراً ؟

انعقد حاجبا (باراك) ، وهو يلوح بآلة التصوير ، قائلاً في
صرامة :

- ليس بعد .

ثم أضاف في حزم ، والهليكوبتر تنطلق عائدة إلى القاعدة :

- ولكن هذا سيحسم الأمر .

مطّ الطيار شفّتيه ، وراح يتمتم بكلمات ساخطة ، وهو ينطلق
بالهليكوبتر ..

فمع رجل مثل (باراك) ، لم يكن هناك أمل في قضاء العيد ..
لكني لأم ..

★ ★ ★

« القمة اشتعلت ! »

هتف الرئيس (المسادات) بالعبارة في قلق عنيف ، قبل أن
ينعقد حاجباً في شدة ، قائلاً :

- هذا يعني أن الأولاد قد اكتشف أمرهم هناك .

ثم التفت إلى القادة ، مستطرداً في حدة :

- ويعنى بالتالى أن خطتنا كلها قد انكشفت .

تبادل الرجال نظرة ، حملت كل توتر الدنيا ، قبل أن يقول مدير المخابرات الحربية فى حزم :

- لست أعتقد هذا يا سيادة الرئيس .

هتف الرئيس :

- ولكنهم ألقوا القنابل الحارقة على القمة بالفعل

أشار مدير المخابرات الحربية بيده ، قائلاً .

- رجال الاستطلاع أشاروا إلى أن قصف قمة ممر (مثلاً)

بدأ فى التاسعة تقريباً ، والساعة الآن الحادية عشرة ، دون أن

يتعرض المعمر الآخر إلى قصف مماثل ، ولو أن أمر رجالنا قد

انكشف ، عند ممر (مثلاً) ، فقد كان من الطبيعى أن يسارع

الإسرائيليون بفحص المعمر الآخر ..

قال مدير المخابرات العامة فى حماس :

- أنا ألتفق معك تماماً فى هذا .

أدار إليه الرئيس عينين متسائلتين ، فتابع فى سرعة :

- فى رأى أنها مبادرة فردية من (عمى) ، فذلك الرجل عنيد

ومتشكك إلى أقصى حد ، وما دام عاجزاً عن تفسير حادث سقوط

الهليوكوبتر ، فسيبذل قصارى جهده ، لتحطيم أى احتمال آخر .

قال الرئيس فى توتر :

- ربما يعنى هذا أن خطتنا يمكن أن تستمر بالتوقيت نفسه ،
وأن الرجال فى المعمرين الآخرين بخير ، ولكنه يعنى فى الوقت ذاته
أن الأولاد فى ممر (مثلاً) يواجهون جحيماً ونحن عاجزون عن
إنقاذهم ، قبل ثلاث ساعات من الآن .

شد قائد الصاعقة قامته ، وقال فى حزم :

- إنهم أسود يا سيادة الرئيس ، ولن يهزمهم (باراك) هذا .

قال الرئيس فى صرامة :

- الحرب لا تنهى على أحلام ونوايا حسنة يا رجل .

لجابه قائد الصاعقة بحزم أكبر :

- إننى أعرف رجالى يا سيادة الرئيس .. حتى ولو تحول الجبل

إلى كتلة من النار ، فهم سيصمدون ، وسيقاتلون ، حتى آخر رجل ،

وأخر قطرة دم .

لوماً الرئيس برأسه ، وغمغم :

- أتعشتم هذا .. أتعشتم هذا .

وعاد يناقش تفاصيل الساعات الأخيرة ، قبل لحظة الصفر ،

وعقله يحمل ذلك التساؤل المخيف ..

توى هل سيصمد الرجال هناك بحق ؟

هل ؟

★ ★ ★

٥ - المواجهة ..

ترد (قدرى) لعابه ، وتطلع إلى المدير بنظرة صامتة عجيبة ، جعلت هذا الأخير يبتسم فى هدوء ، قائلاً :

- أنت تشعر بالجوع .. أليس كذلك ؟!

هزّ (قدرى) رأسه ، وبدأ لحظة وكأنه عاجز عن النطق ، قبل أن يجيب بصوت شاحب مبجوح :

- بالتأكيد .

ثم تردد لحظة ، فابتسم ابتسامة المدير ، وهو يلتقط سماعة الهاتف ، قائلاً :

- لا تقلق .. إننى أعرف نوبتك جيداً ،

وضغط رقماً داخلياً ، ثم قال :

- صباح الخير يا (سعيد) .. إنه أنا .. المدير . كلاً . ثم أنصرف بعد .. اسمع يا (سعيد) .. أنا هنا فى حجرة الأرشيف .. سأنتقل مع السيد (قدرى) إلى مكتبى .. أريد وجبة كاملة .. نعم .. وجبة كاملة للسيد (قدرى) .. آه .. بالضبط . أعلم أنها الرابعة والنصف صباحاً ، ولكن من الضروري أن تكون الوجبة دسمة وساخنة .

وغمز بعينه لـ (قدرى) ، مضيفاً :

- وضخمة .

ثم أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها ، ونهض ، قائلاً :

- هيا .. سيحضرون وجبتك إلى مكتبى .

تبعه (قدرى) فى صمت ، وكل نرة فى كياته توحى بالتوتر والتردد ، وما إن دلفا إلى مكتب المدير ، حتى هتف نائبه الأول فى دهشة :

- سيادة المدير ؟! لقد تصوّرت أن ...

قاطعه المدير بإشارة من يده ، قائلاً :

- لقد قرّرت قضاء بعض الوقت مع السيد (قدرى) .

ابتسم نائبه وهو يللم أوراقه ، ويقول :

- أراهن على أنها مغامرة أخرى ، من مغامرات سيادة العميد (لاهم) .

ضحك المدير ، وقال :

- بالضبط .

لما (قدرى) ، فقد ابتسم ابتسامة باهتة ، وظلّ صامتاً ، حتى انصرف نائب المدير لينهى أعماله فى مكتبه ، وأحضر (سعيد) الوجبة الضخمة ، التى احتلت المائدة بأكملها .

ولكن العجيب أنه لم يمد إصبعاً واحداً إلى الطعام ، وهو يبدو
شاردًا متوترًا ، فقال المدير نحوه ، متسائلاً :

- ماذا يفتلك ؟!

تردد (قدرى) بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن اندفع ، قائلاً :

- ربما تكون عملية (عنق الزجاجاة) هذه من أهم وأخطر
العمليات ، التى قام بها (أدهم) ، ولكن الواقع أننى قد طالعت
عمليات أخرى ، كانت أكثر حيوية وإثارة من هذه العملية بكثير .

ابتسم المدير ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويقول :

- أمر طبيعى .

هتف (قدرى) فى دهشة :

- طبيعى ؟!

أشار المدير بيده ، قائلاً :

- بالتأكيد .

ثم عاد يميل نحوه ، مضيفاً :

- لأن دور (أدهم) فى العملية لم يبدأ بعد .

ففر (قدرى) فاه بذهول حقيقى ، وهو يقول :

- لم يبدأ ؟!

هز المدير رأسه ، وقال :

- لو أن الأمور سارت على ما يرام ، لما بدأ ذلك الجزء من
العملية أبداً ، فنقد كان من المفترض أن يكمن الرجال فى الجبل
فحسب ، حتى يحين موعد بدء القتال ، وهذا ما حدث فى العمر
الآخر ، ولكن مصرع جندى الصاعقة ، فى أثناء الهبوط ، وكشف
الدورية الجوية لوجوده ، كانا السبب فى تطور الأمر عند ممر
(متلا) ، على هذا النحو الضيف .

سأله (قدرى) فى لهفة :

- ولكن الرجال أكملوا مهمتهم بنجاح ، أليس كذلك ؟!

تردد المدير هذه المرة ، فتسأله (قدرى) فى قلق :

- هل ...

قاطعه المدير بإشارة من يده ، وقال :

- الأمور لا تسير أبداً بهذه البساطة يا رجل ، فضايط (موساد)
عنيف شرس ، مثل (باراك عمتاى) ، لم يكن لينقى الأمر عن
ذهنه أبداً ، خاصة وأنه قد عثر على الدليل ، الذى كان ينشده

جف حلق (قدرى) بشدة ، حتى إن صيحته أتت مختنقة
ناقصة ، وهو يهتف :

- عثر عليه ؟! كيف ؟!

عط المدير شفتيه ، وهز رأسه ، قائلاً :

- كان بارعاً بحق .

ثم عاد يروي القصة ..

بكل تفاصيلها ..

ألقي (باراك) نظرة عصبية على ساعته ، التي أشارت عقاربها إلى الثانية عشرة ظهراً ، وهو يقول في غضب :

- لماذا استغرقوا كل هذا الوقت لإعداد الفيلم ؟!

أجابته مساعده ، محاولاً تهدئته :

- تحميص وإظهار الشرائح الملونة يحتاج إلى وقت أطول

يا أدون (باراك) .

غمغم (باراك) في حلق :

- يا للسخافة !

لم يكذ ينهي عبارته ، حتى دلف مهنول العرض إلى القاعة ،

وهو يقول في صوت يحمل رنة حلق :

- الفيلم جاهز للعرض يا أدون (باراك) .

كان من الواضح أن الكل يشعر بالسخط ، لاضطرارهم إلى العمل يوم عيد (كيبيور) ، ولكن (باراك) لم يبال بسخطهم وغضبهم ، وهو يشير للرجل ، قائلاً في صرامة :

- هيا .. تبدأ .

ضغط الرجل زر فانوس العرض ، وهو يطفئ الأنوار ، فانتقد حاجباً (باراك) ، وهو يتابع الصور ، التي يتم عرضها على الشاشة ، بكل اهتمام وتركيز ..

كانت كلها تتقل صور ذلك الجحيم ، الذي أشعله على قمة القمر ..

والسنة الذهب المتطايرة ..

والصخور المشتعلة بالنابالم ..

و ...

« أعد الصورة السابقة .. »

هتف (باراك) بالعبارة ، وهو يقفز من مقعده ، ويلوح بذراعه في قوة ، فعط مهنول العرض شفتيه في حلق ، وأعاد عرض الصورة السابقة .

وبمنتهى الاهتمام ، اقترب (باراك) من الصورة ، التي تملأ الجدار كله ، وراح يفحصها بمنتهى الدقة ، قبل أن يشير إلى مجموعة من الصخور عند المنحدر ، متسائلاً في عصبية .

- هل يمكنك تكبير هذا الجزء ؟

أجاب الرجل في ضجر :

- بالتأكيد

عدّل وضع الشريحة ، واستخدم عدسة أخرى ، لتكبير ذلك
الجزء خمس مرات ، ليملاً بدوره الشاشة كلها .

وتأثقت عينا (باراك) ، وهو يهتف :

- كنت أعلم هذا - كنت واثقاً من أنني على حق .

سأله مساعده في لهفة :

- ماذا وجدت يا أدون (باراك) ؟

أشار (باراك) إلى إحدى الصخور ، قائلاً :

- هل ترى هذه البقعة الحمراء ؟

سأله مساعده في حيرة :

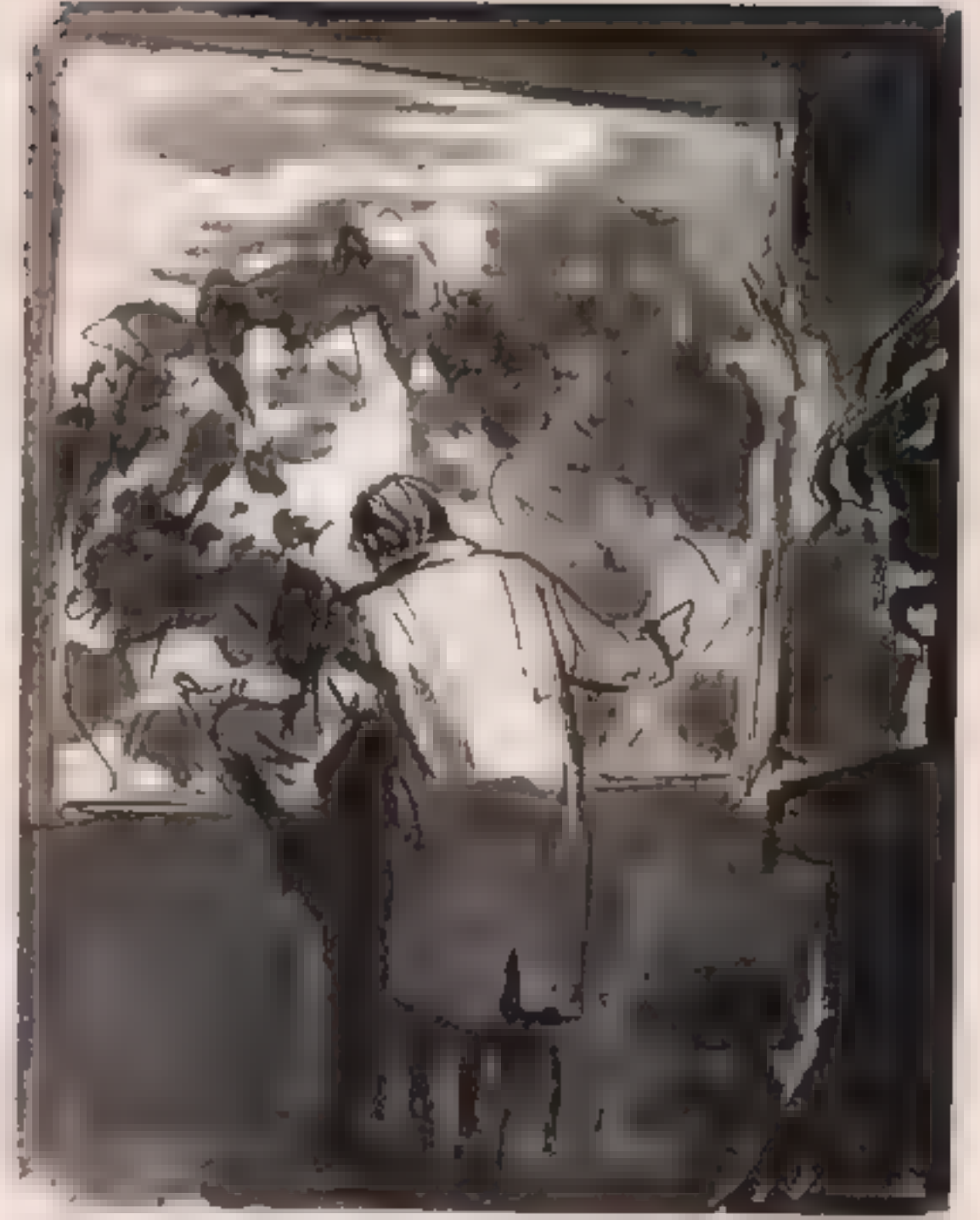
- وما هي ؟

عادت عينا (باراك) تتأقن ، وهو يجيب :

- نعم .. نعم طازج

حذق مساعده في تلك البقعة الحمراء ، قبل أن يفهم في

تردد :



وبمتهى الاهتمام ، اقترب (باراك) من الصورة التي تملأ الجدار كله ، وراح
يفحصها بمتهى الدقة ، قبل أن يشير إلى مجموعة من لصخور عبد المحمد .

- ربما كانت بقعة دم بالفعل ، ولكن هذا لا يعنى بالضرورة وجود مصريين هناك .. من أترانا أنه ليس مجرد حيوان صحراوي .. و ..

قاطعه (باراك) فى حدة :

- حيوان صحراوي على القمة ؟! أى سبب سخيـف هذا ، الذى يدفع حيواناً عادياً إلى بلوغ قمة كهذه ؟!

دم اختطف سماعة الهاتف ، وقال فى صرامة :

- هنا (باراك) . (باراك عمـتـاي) . أريد التحدث إلى الجنرال (دان) فوراً .

واحتقن وجهه ، وهو يصرخ بغضب هائل :

- نعم . أعلم أنه عيد (كيبور) ، وأن الجنرال فى إجازة ، ولكننى أريد منك أن تبحث عنه فى أى مكان .. أخبره أن الأمر عاجل . عاجل وخطير إلى أقصى حد .. هل تفهم ؟!

ثم أنهى المحادثة فى عنف ، وعيناه تتألقان أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

خبث الفيران أو كادت ، على قمة العمر ، بعد أن أغرقت الرجال الصائمين فى عرق غزير ، ورفعت حرارة أجسادهم إلى حد لا يطاق ..

وفى خفة ، اتجه (أدهم) إلى المقدم (راشد) ، وقال :

- إنها الثانية عشرة والنصف .. أعتقد أنهم لن يعودوا مرة أخرى .

غمغم المقدم (راشد) فى ألم :

- أتعثم هذا .

وعضّ على شفتيه ، فى محاولة لكتمان آلام جراحه ، وهو يقول :

- أتعثم ألا يكون الرفاق قد واجهوا ظروفًا مماثلة ، عند معمر (الجدوى) ، فلقد فقدنا سبعة عشر رجلاً ، ولدينا ستة مصابون ، ولم يبدأ الاشتباك الفعلى بعد .

قال (أدهم) ، وهو يجفف عرقه الغزير :

- سوء حظ لا أكثر .. من كان يتوقع أن يلقى مقاتل صاعقة محترق مثل (منير) مصرعه ، فى هبوط كهذا .

تنهّد المقدم ، قائلاً :

- انه قدره . أنا أريد وأنت تريد . والله (سبحانه وتعالى)
يفعل ما يريد .

غمغم (أدهم) في خشوع :

- ونعم بالله .

ألقى المقدم (راشد) نظرة على ساعته ، وهو يقول :

- الثانية عشرة والرابع بقيت ساعة ونصف الساعة ، على
لحظة الاشتباك .. فلندع الله (سبحانه وتعالى) ألا يصرف
الإسرائيليون على العودة إلى هنا ، قبل الوقت المطلوب

العهود حاجباً (أدهم) ، وهو يفكر بضع لحظات ، قبل أن
يغمغم ، وكأنه يحدث نفسه :

- ولكن ماذا لو عادوا ؟

هزّ المقدم (راشد) رأسه ، قائلاً :

- لست أرغب حتى في التفكير في هذا الاحتمال

تابع (أدهم) ، وكأنه لم يسمعه :

- المشكلة أن يبلغوا القيادة ، بأية وسيلة كانت .

سأله المقدم (راشد) في قلق :

- ملازم (أدهم) . ما الذي يدور في ذهنك بالضبط ؟

التفت إليه (أدهم) ، قائلاً في حزم :

- أن أمتنعهم من الاتصال بالقيادة ، حتى لو بدأ القتال مبكراً .

سأله المقدم (راشد) بقلق أكثر :

- كيف ؟

شرد بصر (أدهم) بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول بحزم
أكبر :

- لدى خطة .

ثم أضاف في صرامة :

- مجنونة .

وعندما شرح خطته ، أترك المقدم (راشد) أنها مجنونة ..

مجنونة بحق ..

لحقن وجه (باراك) بشدة ، وهو يهتف بمنتهى الغضب :

- ماذا تعني بأنك لم تجد الجنرال (دان) ؟! أليس من المفترض

أن يترك عنوانه للطوارئ ؟! ماذا لو اندلعت الحرب فجأة ؟!

واصل البحث عنه في كل مكان ممكن ، وإلا فمأساؤظر للاتصال

بوزير الدفاع نفسه .. هل تفهم ؟!

أنهى الاتصال بعنف ، وهو يقول عصبية :

- ماذا يحدث بالضبط ؟! أمن (إسرائيل) كلها مهددة بعملية عسكرية مصرية ، ولا أجد مسئولاً واحداً لأبلغه بالأمر ! أية حماقة هذه ؟!

حاول مساعدته تهدئته ، وهو يقول فى حذر :

- ربما لأن آخر التقارير الأمنية ، الواردة من كل الجهات ، وحتى من جواسيسنا داخل (مصر) ، تؤكد أن المصريين لا يفكرون مجرد تفكير ، فى خوض القتال ، بأية صورة من الصور .. إن جنودهم مازالوا يسبحون فى القناة ، ويصطادون أسماكها ، حتى هذه اللحظة .. بل إنهم لم يرتدوا خوذاتهم بعد ، وأن تعلم القاعدة .. « من السهل أن تدرك أن المصريين قد أعلنوا حالة الطوارئ ، عندما يرتدى جنودهم خوذاتهم »^(*).

اتعقد حاجبا (باراك) ، وهو يقول :

- فليذهب كل هذا إلى الجحيم .. المصريون هناك ، على قمة العمر ، ولن تقضى قوة فى الأرض بعكس هذا .

(*) العبارة تنسب لوزير الدفاع الإسرائيلى (حىذاك) (موسى ديهان) ، ولقد نطقها سافراً ، فى أحد أحاديثه الصحفية . ولقد التقطتها المخابرات المصرية ، وأدرجت منها أسلوب تغطيته ، وصدرت الأوامر لقادة الوحدات ، بالأمر بارتدى جنودهم خوذاتهم ، إلا قبل العبور بخمس دقائق فحسب ، ولقد نجحت هذه اللعبة البسيطة فى خداع الإسرائيليين ، فى اللحظات الأخيرة .

ثم لوائح بذراعه كلها ، صائحاً فى غضب هائل :

- لا بد أن يفعلوا شيئاً .. لا بد أن يتحركوا ، قبل فوات الأوان .

واتعقد حاجبا بعض الوقت ، فى غضب أكثر ، قبل أن يلتقط سماعة الهاتف ، ويطلب رقماً خاصاً ، ثم يقول فى صرامة :

- هنا (باراك) .. قل لى يا رجل : كم هليكوبتر لدينا للطوارئ ؟! كلا .. دعك من طائرات الدورية .. كم لدينا من تلك المزودة بالصواريخ ؟!

صمت لحظة ، ليستمع إلى محدثه ، قبل أن يقول :

- خمس طائرات .. عظيم .. أخبر الطيارين أن يستعدوا .. وتأكد من أن كل هليكوبتر كاملة الذخيرة والعتاد .

أنهى المحادثة ، فسأله مساعدته بقلق شديد :

- ما الذى تنوى فعله بالضبط يا أدون (باراك) ؟!

التقى حاجبا (باراك) على نحو مخيف ، وهو يجيب بمنتهى الصرامة :

- ما دام الكل يتعامل مع الموقف بهذا الاستهتار السخيف ، فلم يعد أمامى سوى أن أتصدى له وحدى .. وبمنتهى العنف .

اتسعت عينا المساعد فى ارتياح ، وهو يهتف :

- رباه ! هل تتوى أن ..

قاطعه (باراك) بكل صرامة الدنيا :

- نعم يا رجل .. أتوى أن أشن حربًا .

وعاد حاجباه ينعقدان في شدة ، وهو يضيف :

- حرب (باراك) الخاصة .

* * *

تتأهب قائد فرقة حراسة معمر (متلا) في ضجر ، وهو يلقي نظرة على ساعته ، التي أشارت عقاربها إلى تمام الواحدة ظهرًا ، وهو يغمغم :

- يا له من ظلم ! الكل ينعم بالعيد ، ونحن نقضى اليوم هنا ، وسط الصخور . والرمال .

ثم أطلق من صدره زفرة حارة ، متابعًا :

- ورجل (الموساد) المجنون هذا ، يرغب في إشعال الموقف أكثر وأكثر ، وكأنما لا يجد ما يشغل به يومه .

ضحك أركان حرب الفرقة ، وهو يقول :

- هكذا رجال (الموساد) دائمًا ، يصنعون من الحبة قبة .

عط قائد الفرقة شفثيه ، مغمضًا :

- بالضبط !

ثم عاد يتتأهب ، متابعًا :

- المهم أن يتعد عنا . ليست لدى الرغبة في القيام بأية نشاطات اليوم .

في نفس اللحظة ، التي نطق فيها عمارته ، كان (أدهم صبرى) يهبط الجبل ، في خفة ونشاط وسرعة .

كان يعلم أن انكشاف أمر قوات الصاعقة ، على قمة المعمر ، يعنى أن تفقد (مصر) أهم عامل من عوامل الفوز في الحروب ..

عامل المفاجأة ..

ولكن الموقف كله ارتبك منذ البداية ..

وصار من المحتم إيجاد صيغة جديدة للتعامل ..

بعضهم يشك في وجود المصريين ..

ويجادد لإثبات هذا ..

ولم يعد هناك مفر من المواجهة ..

قبل ساعة للصفر ..

ولكن بشروط جديدة ..

ألا تكون هناك فرصة لإبلاغ القيادة ..

أية فرصة ..

والوسيلة الوحيدة لبلوغ هذا ، هي تعطيم كل وسائل الاتصال ..

بلا استثناء ..

كان يجازف بضياح كل شيء ، وهو يهبط الجبل هكذا ..

في وضع النهار ..

لذا فقد كان أول ما ينبغي فعله ، هو إخفاء هويته المصرية ..

واتتحال هوية أخرى ، تتيج له حرية أكبر في الحركة ، في

مكان يسيطر عليه العدو بالكامل ..

هوية إسرائيلية ..

لذا فقد هبط بمنتهى الحذر ، حتى أصبح على ارتفاع عشرة

أمتار من الرمال ..

وعندما توقف ، عند بروز صخري ضخم ، على ذلك

الارتفاع ، كان يمكنه أن يرى بوضوح مجموعة من خمسة

رجال ، مع مدفع ميداني ضخم ..

كان يعلم بوجود وحدة دفاع جوي ، بالقرب من القمة ، على

الجانب الآخر ، ولكنه لم يكن يدرك وجود تلك الوحدة الدفاعية

المحدودة ، في ذلك الموقع ..

وهذا سبب اختياره له بالتحديد ..

ولكن يبدو أنه تعديل دفاعي في اللحظات الأخيرة ، بمناسبة

عيد الغفران ..

ولدقيقة كاملة ، أخفى نفسه بين صخور ذلك البروز ، وهو

يعد دراسة الموقف ..

ثم بعد هناك مجال للتراجع الآن ..

فالوقت يمضي ..

والخطر يتضاعف أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

لذا ، فقد حسم (أنهم) أمره بسرعة ..

واتخذ قراره ..

ووثب ..

ومن المؤكد أنها كانت مفاجأة عنيفة للإسرائيليين الخمسة ..

فمفاجأة ، وبلا مقدمات ، وجدوا ضابط صاعقة مصرياً يهبط

بينهم ..

وقبل حتى أن يفغر أحدهم فاه ذاهلاً ، كان الملازم أول (أدهم)
قد انطلق كالصاعقة الحقيقية ..

« لا تقتل أبداً يا (أدهم) ، إلا مضطراً .. » .

« وإلا بالحق .. » .

تردّدت عبارات والده في عقله ، في تلك اللحظات ..

ولكنها الحرب ..

وفي الحروب ، يكون القتل يوماً ضرورة ..

لذا ، فقد استلّ خنجره ، وانقضّ به كالليث ، على حاملي
المدافع الآلية الخمسة ..

لا ينبغي أن تنطلق رصاصة واحدة ..

هذا كل ما يعنيه ..

فالرصاصة لن تعني هزيمته وحده ..

بل ربما تعني هزيمة وطن بأكمله .

وطن يقاتل من أجل الحق .

والعدل ..

والحرية ..

ومن المؤكد أن ما قطعه لم يرق له أبداً ..

والدليل أنه لم يفكر التفاصيل قط في تقريره ..

كل ما أشار إليه هو أن القتال قد استغرق نصف دقيقة
فحسب ..

وبعدها كان عليه أن يستبدل بزيه القتالي المصري ، زي أحد
الجنود الإسرائيليين الخمسة ، الذين لقوا مصرعهم ..

ولكن فجأة ، وقبل أن يفعل ، للتقطت أذناه هدير مراوح
الهليكوبتر ..

وبحركة حادة ، لارتفع بصره إلى أعلى ..

ورأى الطائرات ..

خمس طائرات هليكوبتر مقاتلة ، تقضّت على قمة الممر ..

وفي آن واحد تقريباً ، انطلقت صواريخها نحوها ..

وانتفض قلب (أدهم) في عنف ، مع دوى الانفجارات العنيفة ..

وتطايرت الصخور القمّة ..

وتناثرت معها الدماء ..

نهر من دماء الشهداء والضحايا ..

وبكل لوعته وغضبه ، صرخ (أدهم) :

- لا !!!

وضاعت صرخته وسط ذلك الجحيم ، الذى ينسف القمة
بلا رحمة ..

وبلا هوادة ..

وفى حجرته ، صرخ قائد كتيبة حراسة النفق فى ارتياح :

- ماذا حدث ؟! هل شنّ المصريون الحرب ؟!

أجابه أحد ضباطه ، فى توتر بلا حدود :

- بل هى طائراتنا يا سيدى .

احتقن وجه القائد ، وهو يصرخ :

- أهو ذلك المافون مرة أخرى ؟!

أجابه ضابط آخر فى عصبية :

- إنه هو . لقد أبلغنا ، منذ دقيقة واحدة ، أنه سينسف
القمة كلها .

صرخ القائد فى غضب هائل :

- يا للجنون ! يا للجنون !

ثم اندفع نحو حجرة الاتصالات ، مستطردًا بكل غضب الدنيا :

- سأبلغ القيادة جنونه هذا . لا بد أن يدفع الثمن . لا بد

افتحم الحجرة بمنتهى العنف . وأزاح ضابط الاتصال جانب
فى غلظة ، وهو يلتقط مسماع جهاز الاتصال ، ويضغط الأزرار
فى عصبية ، هاتفاً :

- من كتيبة (متلا) إلى القيادة .. من كتيبة (متلا) إلى
القيادة .. حول .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يأتيه صوت قائده ، وهو
يقول فى توتر :

- ماذا حدث يا رجل ؟! لماذا هذا الاتصال العصبى ؟!

صاح الرجل فى حدة :

- الجحيم اشتعل من حولنا بلا مبرر ، فى يوم العيد . ضابط
(موساد) مجنون يقصف القمة بالصواريخ ، بوساطة خمس
طائرات هليوكوبتر حربية .

هتف قائده فى ذهول :

- ضابط (موساد) فعل هذا ؟!

صاح الرجل ، محاولاً الارتفاع بصوته عن دوى القتابل
والانفجارات :

- نعم ضابط (موساد) مجنون ، يصرخ على أن المصريين
هناك ، على القمة .

صمت قائده بضع لحظات ، قبل أن يقول فى غضب :

- سأعمل فوراً على إيقاف هذه المهزلة .

أنهى قائد كتيبة الحراسة المجاذبة ، وهو يهتف بصوت مرتفع ،
والانفجارات تتوالى عند القمة :

- يا له من جنون ! من يمكن أن يصدق أن المصريين هنا ؟!

أتاه صوت صارم غاضب ، يقول :

- أنا !

استدار القائد وضابطه ، وكل جنود حجرة الاتصالات إلى
مصدر الصوت ، وما إن وقع بصرهم على (أدهم) ، برزى
الصاعقة المصرى ، حتى ارتفعت فوهات مدافعهم نحوه بحركة
آلية ، وقادهم يصرخ ، بكل ذهول الدنيا :

- مستحيل !

وقبل حتى أن تكتمل صرخته ، كان الجميع قد ضغطوا لرعدة
مدافعهم الآلية ، و ...

ودوت الرصاصات فى المكان ..

بمنتهى العنف .

★ ★ ★

٦ - المقاتل ..

فقر (قبرى) فاه فى ذهول ، حتى بدا مظهره مضحكاً ، بكل
هذا الطعام فى فمه ، فضحك مدير المخابرات ، قائلاً :

- ماذا دهاك :

حاول (قبرى) أن يزرد ما بفيه ، ولكن قطع اللحم انشرت
فى حلقه ، فاحتقن وجهه بشدة ، وهو يختطف كوباً من الماء
المثلج ، ويلقيه فى جوفه ، ثم يسعل ، ويربت على كرشه ،
مغمغماً :

- حمداً لله .

وتردد لعابه ، ثم أجاب المدير فى توتر :

- ولكن ألا يعنى هذا أن (أدهم) قد بدأ المواجهة ، قبل ساعة
الصفير بالعمل ؟!

نوماً المدير برأيه ، قائلاً :

- بالطبع .

هتف (قبرى) :

- ولكن كيف ؟!

صمت المدير بضع لحظات ، وكأنما يسترجع ذكرى قديمة ، قبل أن ينهض من خلف مكتبه ، ويدس كفيه في جيب سرواله ، وهو يتطلع إلى الشفق ، الذي تلون ببوار الشروق ، ثم قتل .

- الشيء الوحيد ، الذي يمكنك أن تتأكد منه دوماً ، هو أن (أدهم صبرى) رجل يجيد تقدير الأمور والمواقف ، وليس بالرجل الذي يقدم على أية حماقات غير مدروسة

غمغم (قبرى) فى تردد :

.. ولكن الأوامر ..

قاطعه المدير :

- من أفضل مميزات (أدهم) ، والتي قد يعتبرها بعض التقليديين عيباً بالغ الخطورة ، هو قدرته على دراسة موقفه ، وتعديل الأوامر الصادرة إليه ، بحيث تتناسب مع متغيرات الأمور

وعاد يتطلع إلى الشفق ، متابعاً :

- ومن المؤكد أنه كان يشعر بغضب ومرارة لا حدود لهما ، فى تلك اللحظات الرهيبة ، عندما أدرك أن فرقة الصاعقة كلها لن يمكنها الصمود على القمة ، أو حتى فى الجوانب المنحدرة ، مع قصف رهيب موجه كهذا ، وأن الجميع سيلقون حتفهم حتماً ، قبل أن يبدأ الاشتباك الفعلى .. وكان يدرك فى الوقت ذاته أن هبوطه

لتنفيذ خطته ، هو الذى جنبه المصير ذاته ، واتخذه ليبقى فى عالم الأحياء .

تمتم (قبرى) مشفقاً :

- ياله من موقف !

تابع المدير ، وكأنه لم يسمعه :

- ولكن الشيء الذى كان يدركه أكثر ، هو أن العملية كلها قد أصبحت مسئولية وحده ، وأن كل ما كان ينبغى أن تقوم به فرقة الصاعق ؛ لتحويل الممر إلى عنق زجاجة ، يصعب على الإسرائيليين تجاوزه ، بأية معدات أو إمدادات ، صار عليه أن يقوم به وحده .. من أجل (مصر) .

هتف (قبرى) مبهوراً :

- يا إلهى ! يا إلهى !

واصل المدير مرة أخرى ، وكأنه لم يسمع تعليقه :

- لأنه يدرك مدى صعوبة . أو بمعنى أدق استحالة المهمة ، فقد اتخذ قراراً مصيرياً حاسماً .

والتقط نفساً عميقاً ، قبل أن يضيف :

- وبدأ المواجهة مبكراً ، بأكثر من نصف الساعة ، عن موعدها الفعلى ، المحدد من القيادة .

هزّ (قدرى) رأسه غير مصدق ، وتمتم :

- يا له من رجل !

ثم تصاعل فى قلق شديد :

- ولكن ألا يكفى هذا لتبنيه الإسرائيليين لما يحدث ؟!

ابتسم المدير ، وقال :

- من الواضح أنه قد أحسن تقدير الموقف - حينذاك - فقد كانت الانفجارات تصم الأذن عند القمة ، وهو داخل حجرة الاتصالات الرئيسية والوحيدة داخل المعمر ، ولو أمكنه السيطرة عليها ، سيتمنع إبلاغ القيادة لأطول فترة ممكنة ، حتى يحين الموعد الحقيقى .

تصاعل (قدرى) بلهفة شديدة :

- وهل فعل ؟

صمت المدير مرة أخرى ، قبل أن يهز رأسه ، مجيباً :

- لم يكن ذلك بالأمر السهل .

ثم عاد إلى مقعده خلف مكتبه ، وواصل روايته .

* * *

من المؤكد أن الحروب تختلف عما عداها .

إنها أمر بشع ..

بشع .

وبشاعته هذه تفوق كل تصوراتك بالتأكيد .

ففى الحروب ، لا توجد حلول وسطية ..

إما أن تقتل ، أو تُقتل ..

لا تصاهل ..

لا هودة ..

ولا رحمة ..

وكل من شارك فى أية حروب يدرك هذا ..

ويدرك أكثر أهمية السلام ..

ففى تلك المواجهة ، داخل حجرة الاتصالات ، فى معمر (مثلاً) ،

لم يكن أمام (أدهم) خيار .

ولا أمام الإسرائيليين أيضاً ..

لذا فقد انطلقت الرصاصات من الجانبين كالمنظر .

وشعر (أدهم) بألم عنيف فى فخذه اليسرى .

وفى نراعه اليمنى ..

وأمام عينيه ، تفجرت الدماء ، من صدر القائد ، وطار ضابطه
من مكانه ، ليرتطم بجهاز اللاسلكى ، ويسقط معه أرضاً ..

وحصدت الرصاصات الأخرى الباقين بلا رحمة ..

وتفجرت الدماء ..

أنهار من الدماء ..

وفى الخارج ، وعلى الرغم من نوى الانفجارات ، التقطت
أذان الإسرائيليين صوت النيران المتبادلة ..

واندفعوا بكل ذعرهم نحو الحجرة ..

وكان (أدهم) يدرك هذا جيداً ..

فما إن تأكد من أن رصاصاته قد أدت مهمتها بنجاح ، حتى أفرغ
خزانة كاملة فى جهاز اللاسلكى ، قبل أن يشب خارج الحجرة ،
وهو يستبدل بها خزانة أخرى جديدة ..

ولىواجه العدو ..

كل جنود العدو ..

وبأله من مشهد !

ضابط صاعقة مصرى واحد ، فى مواجهة ما يقرب من
ثلاثين جندياً وضابطاً إسرائيلياً .

ودبابتين ..

وسيراً من الرصاصات ..

ومن اللحظة الأولى ، كان من الواضح بأن التكافؤ منعدم تماماً .

وهذا ما جعل الإسرائيليين أكثر عنفاً وشراسة ..

ولكن (أدهم) كان يتحرك على نحو مذهل بحق ..

لقد أطلق النار من مدفعه الآلى بلا هوادة ، وهو يشب جانياً ،
ويدور حول نفسه ، ثم يقفز محتثماً بسيارة (جيب) كبيرة ..

ولكن أكبر الضباط رتبة صرخ ، فى غضب جنونى :

- لا تجعلوا شيئاً يعوقكم عن قتل ذلك المصرى .. اسحقوه
سحقاً .. اسحقوه بلا رحمة ..

لذا فقد انهالت الرصاصات على الجيب كالمطر ..

ثم انتزع أحد الجنود قبلة من حزامه ، وألقاها نحوها فى
عنف

ورأى (أدهم) القبلة اليدوية تسقط داخل السيارة .

ولمرك أنها تحتاج إلى خمس ثوان ..

خمس ثوان فحسب ..

ثم يحدث الانفجار ..

وبمباررة مدهشة ، دفع جسده إلى الأمام ، واختطف القبلة ..
ثم ألقاها بكل قوته نحو الإسرائيليين ..
ودوى الانفجار ..

خمسة من الإسرائيليين لقوا مصرعهم في الحال ..
والباقيون تضاعف غضبهم وجنونهم ..

وبأمر مباشر من أحد ضباطهم ، انتزع خمسة جنود قنابلهم ..
وألقوها دفعة واحدة نحو الجيب ..
ولم يكن هناك مفر من الفرار ..

وبكل قوته ، وعلى الرغم من كل إصاباته ، انطلق (أدهم) ..
يعدو ، وهو يطلق رصاصاته كالمطر ، ويطلق بثلاثة آخرين ..
وصرخ الضابط الإسرائيلي :

- الحقوا به .. اقتلوه .

وقبل حتى أن تكتمل صرخته ، انفجرت القنابل النووية الخمس
في آن واحد ..
ودوى انفجار هائل ..

انفجار اقتلع (أدهم) من مكانه ، وأطاح به خمسة أمتار
كاملة ، قبل أن يسقط أرضاً في عنف ، ويتدحرج وسط عاصفة
من الغبار واللهب ..

وفي الظروف العادية ، كان هذا يكفي ، ليصاب الشخص ،
أي شخص ، بارتجاج عنيف ، يزلزل كيانه ، ويشقت تفكيره ،
ويفقده القدرة على التحكم في تصرفاته واتزانه ، لدقيقتين
أو ثلاث على الأقل .

ولكن هذا لا ينطبق بالتأكيد على ضابط صاعقة مصري ..
فما بالك برجل مثل (أدهم صبرى) ؟

لقد ارتطم بالأرض في عنف ، وغرق وسط عاصفة من الرمال
واللهب ، إلا أنه وثب واقفاً على قدميه بسرعة البرق ، وانطلق
يعدو متخفياً بالغبار ، نحو أقرب مكان إليه ، وصوت الضابط
الإسرائيلي يبلغ أذنيه ، وهو يصرخ كالمجنون :

- أطلقوا النار .. لا تمنحوه لحظة واحدة .. اقتلوا هذا
المصري ، أو قبحكم جميعاً بلا رحمة ..

لم يكن الجنود يرون (أدهم) ، وسط الغبار والنييران ، إلا أن
صيحة ضابطهم جعلتهم يطلقون النييران في عنف وشراسة
لا مثيل لهما ..

وفي كل الاتجاهات ..

وعلى الرغم من كل هذا ، ومن الغبار والسنة اللهب
والرصاصات ، كان (أدهم) يعدو محتمياً بسواترهم الترايبية ،
وهو يعرف طريقه جيداً ..

فقبل حتى أن تبدأ مهمتهم ، كان رجال المخابرات الحربية والاستطلاع قد صنعوا نموذجاً كاملاً للممر ، بكل وحداته ، ومركباته ، وثكناته ..

وكان (أدهم) يحفظ ذلك النموذج عن ظهر قلب .

وهذا ما دفعه نحو ذلك الهدف بالتحديد ..

وقبل أن ينقشع الغبار ، ويتمكن الإسرائيليون من رؤيته ، كان قد بلغ الهدف بالفعل ..

وبوثبة أخيرة ، التقطت يده مزلاجه ، وحذبه في سرعة ، ثم دفع جسده داخل المكان ، وأغلق الباب في عنف .

وبحركة آلية ، استدارت فوهات المدافع الآلية كلها نحو المكان ، و ...

« توقفوا .. »

انطلقت صرخة الضابط الإسرائيلي قوية ، هائرة ، صارمة ، فتجمدت سبابات الجنود على أرندة مدافعهم ، والتفتوا إليه في توتر ، فأشار بيده في عصبية ، قائلاً :

« رصاصة واحدة في هذا المكان ، وبخترق جميعاً

انتبه الجنود ، في تلك اللحظة فقط ، إلى طبيعة ذلك المكان ، الذي انتقاه (أدهم) ..

كان مخزن الوقود ، الخاص باحتياجات الكتيبة كلها ، وبخاصة الدبابتين ..

ولثوان ، ساد مزيج من الصمت والتوتر في المكان ، خاصة وأن طائرات الهليكوبتر ، التي يقودها (باراك) ، كانت قد انتهت من قصفها ، وعادت أبراجها ، بعد أن سحقت القعة سحقاً ، دون أن تشعر أو تترك ما يدور تحتها ، في قلب الممر ..

وفي صوت خافت ، وكأما يخشى أن يفسد ذلك الصمت ، تعتم عريف الكتيبة :

« هل نهاجم !؟ »

هتف به الضابط الوحيد المتبقى ، في حدة .

« كلاً أيها الغبي . »

وصمت لحظة ، وهو يتطلع إلى مخزن الوقود في عصبية شديدة ، قبل أن يقول في صرامة :

« أحضر مكبراً صوتياً . »

أسرع العريف لتنفيذ الأمر ، في حين التفت الضابط إلى بعض جنوده ، قائلاً بنهجة أمرة يغلب عليها التوتر :

« انقلوا السواتر الرملية إلى هنا ، وأخبر قائد طاقم الدبابتين أنني أريدهما فوراً . »

نطق أوامره ، ورفع فوهة مدفعه الآلى ، وهو يواصل التطلع إلى مخزن الوقود فى توتر بالغ ، ثم لم يلبث أن نقل بصره إلى حجرة اللاسلكى ، وغغم فى حلق :

- إذن فقد كان ضابط (الموساد) على حق .. المصريون هنا .

نطقها فى نفس اللحظة ، التى جلس فيها (أدهم) على أرضية المخزن بين براميل الوقود ، ووضع مدفعه الآلى إلى جواره ، وهو يعد دراسة موقفه ..

من حسن حظه أن الإسرائيليين لم يتصوروا قط أن المصريين سيبدءون الحرب يوماً ..

ولهذا لم يحاولوا دراسة موقع مخزن الوقود جيداً ..

كان مجرد حجرة واسعة من الصاج ، تستند إلى جدار الممر ، ولها باب معننى بسيط ..

ولكنها تتوسط الممر تماماً ..

وتحوى كل احتياجاتهم من الوقود ..

بلا استثناء ..

وهذا يعنى أنه ، فى غياب الاتصالات اللاسلكية ، لا يمكنهم أبداً أن يجازفوا بخسارة الوقود أيضاً ، وإلا فلن تكون لديهم أية وسيلة للحركة ، أو الاتصال بالقيادة ، وإبلاغها ما حدث ..

لقد قنر الأمر كله فى ثوان معدودة ، وهو ينتخب هذا المكان بالذات .

ربما لأنه كان الأمل الوحيد ، فى أن يظل على قيد الحياة ، فى مواجهة عنيفة شرسة كهذه ..

وفى حذر وألم ، راح يفحص إصاباته ..

كان مصاباً بأربع رصاصات على الأقل ، وهناك شظية مفروسة فى فخذه أيضاً ..

وبدون أن يضيع لحظة واحدة ، مزق جزءاً من قميصه ، وراح يضغط به جراحه ، وهو يتسائل فى قلق ، ترى ما الذى سيفعله الإسرائيليون ؟!

وكيف سيواجهون الموقف ؟!

من المؤكد أنهم لن يقفوا ساكنين ..

وأثم سيجدون وسيلة لاخترق المكان .

إنها مسألة وقت لحسب ..

وهذا كل ما يحتاج إليه ..

الوقت ..

عض شفتيه فى ألم ، وهو يجذب تلك الشظية من فخذه ، ويضغط موضعها بقطعة من قميصه ..

ولكن ألمه الأكبر كان له مبعث آخر ..

القفل ..

لقد اضطرته الظروف إلى بدء الاشتباك قبل مواعده ..

ولكن الفرقة كلها لقيت حتفها حتمًا ، عند القمة ..

ولم يعد هناك عواء ..

وها هو ذا حبيس داخل مخزن وقود ، ولا يدري ما الذي

سيكون عليه مصيره ، بعد ساعة واحدة من الآن ..

وهذا يعنى أن عملية (عنق الزجاجاة) قد فشلت

والإمدادات الإسرائيلية ستعبر إلى الغرب ..

وتقاتل ..

وتقتل ..

مرة أخرى عض شفتيه ، وهو يلتقط مدفعه الآلى ، ويدبر

عينيه فى براميل الوقود من حوله ..

ربما كان هذا هو الأمل الأخير ..

براميل الوقود ..

لو أنه نجح فى إحداث انفجار قوى ، قد يؤدى هذا إلى

انهيار الصخور ، وانسداد الممر

ربما أمكنه هذا ..

صحيح أن الانفجار سيقتله حتمًا .



عض شفتيه فى ألم . وهو يجذب تلك الشظية من فحده ، ويصمد

موضعها بقطعة من قميصه ..

ولكنه سيهب الحياة للعديد ..

لكل من يمكن أن يلقي مصرعه ، بسبب الإمدادات
الإسرائيلية ، التي ستعبر الممر ..

هو سيموت ..

ولكن (مصر) ستحيا ..

وهذا كل ما يبتغيه ..

وعلى الرغم من إصاباته وألامه ، نهض من مكانه ، وانتزع
من حزامه كل ما يحمله من قنابل يدوية ..

وفي مهارة خبير ، راح يوزعها في المكان ، و ...

« استسلم أيها المصري .. »

لارتفع صوت الضابط الإسرائيلي ، عبر مكبر صوت قوى ،

وهو يتابع في غضب صارم :

- لا توجد أمامك وسيلة واحدة للفرار .

تمتم (أدهم) ، وهو يضع قبيلته الأخيرة :

- أعلم هذا أيها الوغد .

قال الضابط بنفس الصرامة :

- لو أنك تتصور أن تحطيم وحدة اللاسلكي سيعزلنا عن القيادة

فأنت واهم .. لقد أرسلت إحدى الدبابتين إلى الشرق ، مع نداء

لاسلكي متواصل .. صحيح أن مدى إرسال أجهزتها محدود ،

ولكن إحدى الوحدات في المؤخرة ستلتقط النداء حتماً ، خلال
عشر دقائق أو ربع الساعة على الأكثر ، وستبلغ القيادة .

اتعقد حاجبا (أدهم) في توتر ، مع هذه المعلومة ، وراح
يتحرك بسرعة أكبر ، ويدفع أحد براميل الوقود نحو المدخل ،
والضابط يواصل :

- إنني أمنحك فرصة أخيرة للاستسلام ، وإلا فستقوم الدبابة
الثانية بنسف المخزن كله .

تمتم (أدهم) في توتر أكثر :

- هل يمكنكم أن تفعلوا حقاً ؟؟

خيل إليه أن الضابط قد سمع سؤاله ، وهو يقول ، عبر مكبر
الصوت :

- ولو أنك تتصور أننا لن نطلق النار ، خشية انفجار المخزن

وحدوث انهيار ، فأنت واهم .. أول أمر درسته القيادة ، وهي

تضع الوقود في هذا الموضع بالتحديد ، هو سلامته على الممر ،

في حالة حدوث أي أمر غير طبيعي .. حتى لو انفجر المخزن

مرتين ، لن تنهار صخرة واحدة ..

اتعقد حاجبا (أدهم) في شدة ، مع هذا القول .

هل يعني ذلك الإسرائيلي حقاً ما قاله ؟؟

هل تمت دراسة الموقع بالفعل ؟؟

لو أن هذا صحيح ، فستكون هذه اللحظات هي أسوأ لحظات حياته ..

لحظات سيلقى خلالها مصرعه ، دون أن يمنح وطنه شيئاً .
سيموت دون ثمن ..
دون أن يحقق هدفه ..
وهدف العملية كلها ..
عملية (عنق الزجاجاة) ..

وفى أعماقه ، تصاعد مزيج عجيب من الغضب والمرارة ،
والضابط الإسرائيلي يتابع فى صرامة ، حملت هذه المرة رنة
من الشماعة ..

- كل الأفراد يحتشون خلف سواتر رملية قوية .. صحيح
أن انفجار المخزن سيحيل المكان إلى ما يشبه الجحيم
ولكننا سننجو .. أنت وحدك ستلقى مصرعك كجرد
حقير ..

وتصاعدت نبرة الشماعة ، مع استطراده :

- إنك لم تسأل ماذا ستفعل الدبابة الثانية ، بعد أن خرجت
الأولى لإبلاغ القيادة ؟ إنها هنا أمام المخزن مباشرة ،
وتصوب منفعها إليه .

اتعقد حاجباً (أدهم) أكثر ، وقبضت أصابعه على مدفعه فى
قوة ..

إذن فقد اتخذوا قرارهم بالتضحية بمخزن الوقود ، لو لزم
الأمر ..

وهو الآن لم يواجه جنوداً ..
بل دبابة ..

مقاتل واحد ، فى مواجهة دبابة ..
دبابة إسرائيلية ..

وبكل صرامة الدنيا ، قال الضابط الإسرائيلى ، عبر مكبر
الصوت :

- مرة أخرى أؤكد لك أنه لا أمل لك قط فى النجاة .. لا يوجد
أدنى أمل .. ونحن نمنحك عشر ثوانٍ فحسب للاستسلام ،
وإلا فسندفنك كل شيء .. عشر .. تسع .. ثمان ..

قبض (أدهم) على مدفعه بقوة أكثر وفى أعماقه يتفجر
بركان عنيف ..

لن يستسلم أبداً ..

لن يمنح العدو فرصة للتفوق ، فى هذا اليوم .

ولن يموت بلا ثمن ..

سيقاتل حتى آخر رمق ..

وآخر نقطة دم ..

وبكل حزم وحسم وصرامة الدنيا ، رفع فوهة مدفعه ،
والضابط الإسرائيلي يواصل العد التنازلى :

- سبع .. ست .. خمس ..

والتقط (أدهم) نفساً عميقاً ، وقرأ الشهادتين ، و ...

واندفع إلى الأمام ..

وبقفزة واحدة ، أصبح خارج المخزن ..

وارتطم بصره بفوهة الدبابة الإسرائيلية ، المصوَّبة نحوه
مباشرة ..

ورفع (أدهم) مدفعه ..

وصرخ الضابط الإسرائيلي :

- اضرب .

ودوى الانفجار ..

فى قلب الممر .

٧ - ساعة الصفر ..

بلغ توتر الأعصاب ذروته ، فى مركز العمليات الرئيسى فى
(القاهرة) ، مع اقتراب ساعة الصفر ، ولحظة المواجهة
الكبرى ، بين الجيش المصرى والجيش الإسرائيلى ، الذى يدعى
أنه جيش أسطورى لا يقهر ، وأنه قد وضع أمام المصريين
لقوى خط دفاعى عرفه التاريخ ..

خط (بارليف) ..

ومع العد التنازلى ، الذى راح يتسارع على نحو مخيف ، مال
الرئيس (السادات) على وزير الحرب ، متسائلاً فى توتر :

- هل أطلق قائد الطيران إشارة البدء ؟!

أجابه الوزير فى حزم :

- نعم يا سيادة الرئيس .. اللواء (حسنى مبارك) رجل
عبقرى بحق فى مضماره ، وستجد أن طائراتنا ستشق المجال
الجوى كصاعقة مخيفة ، فى الوقت المناسب بالضبط .

أوما الرئيس (السادات) برأسه إيجاباً ، وقال :

- أعلم هذا .. أعلم أنه عبقرى بحق ، حتى إننى أفكر فى .

بتر عبارته بفتة ، وهو يغرق في تفكير عميق مباغت ،
جعل وزير الحربية يسأله :

- في ماذا يا سيادة الرئيس ؟

واصل الرئيس صمته وشروده لحظة ، ثم لم يلبث أن لوح
بيده ، قائلاً :

- لا شيء . لا شيء .. مجرد فكرة ، لم يحن أوان تنفيذها
بعد .

ثم عاد يسأل في اهتمام متوتر :

- ولكن أما من أخبار جديدة ، بشأن أولادنا هناك .. عند
ممر (متلاً) ؟

تهنّد الوزير ، وهو يجيب :

- الأوامر لديهم ألا يقوموا بأية اتصالات ، إلا مع الاشتباك
المباشر ، ولكن تقارير المراقبة والاستطلاع غير مطمئنة على
الإطلاق .. ومحيّرة أيضاً ..

سأله الرئيس في قلق متضاعف :

- كيف ؟

أشار بيده ، مجيباً :

- على الرغم من أن الأمور هادئة ومستقرة تماماً ، عند
الممر الآخر ، وكل شيء يسير وفقاً للخطة ، إلا أن ممر (متلاً)
بالتحديد يتعرض لما يفوق احتمال الرجال .. لقد تم قصف قمته
بالصواريخ في عنف ، ولربيع ساعة متصلة ، على نحو نخشى
معه أن نكون قد فقدنا فرقنا هناك تماماً .

ارتفع حاجبا الرئيس بدهشة مذعورة ، وهو يقول :

- يارب العالمين !! ولكن هذا سيصنع ثغرة رهيبية في الخطة
بأرجل .

هزّ الوزير رأسه ، قائلاً :

- لسنا نعرف الموقف بالتحديد بآسيادة الرئيس ، ولكن من
الواضح أن كل دقيقة تمضي ، هي جحيم حقيقي ، بالنسبة للرجال
هناك .

ألقي الرئيس نظرة على ساعته ، وهو يغمغم :

- ما زالت أمامهم خمس وثلاثون دقيقة . خمس وثلاثون
دقيقة في قلب الجحيم .

غمغم الوزير :

- كل الحروب جحيم يا سيادة الرئيس .

غرق الرئيس في أفكاره بضع لحظات أخرى ، قبل أن يلتفت
إليه في حزم ، وهو يقول :

- الأوامر تمنع اتصالهم بنا ، ولكنها لا تمنع اتصالنا بهم .
أليس كذلك ؟!

أجابه الوزير فى اهتمام :

- بالتأكيد يا سيادة الرئيس .

اتعقد حاجبا الرئيس فى حزم أكبر ، وهو يقول :

- عظيم . امنحهم إذن خمس دقائق أخرى ، ثم أرسل إليهم
عبارة واحدة ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف بكل الحزم :

- على بركة الله .

نطقها ، وكل حرف منها يتفجر بالقوة ..

كل حرف ..

حمل صوت (دان زورسكى) ، قائد أمن منطقة (ميناء) ،
كل غضب وثورة الدنيا ، وهو يصرخ فى (باراك) ، عبر
أسلاك الهاتف :

- ما الذى فعلته أيها المجنون ؟! أية حماقة أقدمت عليها
اليوم ؟! لماذا تصر على إفساد العيد بالنصبة للكل ؟! الجنرال

(موشى) نفسه غاضب بشدة ، بسبب ما فعله بقة مصر
الكل تصور أن الحرب قد اشتعلت بانفجر

قال (باراك) فى صرامة :

- إنها مسألة وقت فحسب .

صرخ الجنرال (زورسكى) :

- أى وقت أيها الأحمق المأفون ؟! شئ تصور أن أحدا
سيصدق ذلك الهوس المجنون ؟! الكز يعلم أن المصريين لن
يحاربوا أبدا . ليس فى هذه الأيام على الأقل . كن ما يدب
معلومات يؤكد هذا ، ولن يمكنك ادعاء العكس . شريد
التجاوز الرهيب .. اسمع يا (باراك) لقد تجاوزت كل النظم
والقوانين العسكرية ، وارتكبت أخطاء بشعة عبيسة ، ولقد
أمرت بتحويلك إلى محاكمة عاجلة ، و

قاطعه (باراك) بقة :

- مهلاً .

تفجرت دهشة الجنرال . لهذا الأسلوب الغنى ، ونصب
دهشته ، عندما أنقى (باراك) سماعة الهاتف ، وبدا تمويهه
من بعيد ، وهو يهتف :

- ماذا هناك ؟!

احتقن وجه الجنرال غضبا ، وصاح في توتر .

- (براك) .. أين أنت أيها ال ...

قبر أن يتم عبارته ، قاطعه (براك) مرة أخرى ، وهو يختطف سماعة الهاتف ، صائح في عصبية :

- كنت على حق .. لقد كنت على حق .

بُهِتَ الجنرال للقول ، وتساءل في توتر :

- ماذا تعني ؟!

صاح به (براك) ، في لهجة لا تخلو من الشماتة .

- الوحدة التاسعة والثلاثون التقطت نداء عاجلاً ، من دبابة أتية من ممر (متلا) .

سأله الجنرال في توتر أكثر :

- ماذا تع ...

وللمرة الثالثة ، ودون مراعاة لاية قواعد عسكرية ، قاطعه (براك) هاتفاً :

- إنهم هناك .. المصريون هناك .

وكان هذا يكفي ..

يكفى لتنتفض كل ذرة في كيان الجنرال (زورسكي)
وبمنتهى العنف^(*) ..

* * *

كان الانفجار قوياً بحق ..

ولكن ليس بالقوة التي تصورها (أدهم)

ولا في الاتجاه المفترض أيضاً ..

قفى نفس اللحظة ، التي أطلق فيها الضابط الإسرائيلي هتافه ،
انطلق صاروخ من أعلى ، وأصاب برج الدبابة ، التي تصوب
مدفعها إلى (أدهم) ..

ودوى الانفجار ..

انفجار أطاح ببرج الدبابة في عنف ، وأصاب الإسرائيليين
بصدمة عنيفة ، وخاصة عندما أعقبت الانفجار صرخات قوية ،
انطلقت من حناجر جنود صاعقة مصريين ، يهبطون من القمة ،
بوساطة جبال قوية ، بقيادة المقدم (راشد)

(*) أكد المؤرخ المصري ، الأستاذ (جمال حماد) أن هبّ استعداد
(مصر) لشح حرب شاملة ، قد تصرب إلى الإسرائيليين ، قبيل ساعة الصفر
وتن القيادة الإسرائيلية قد حاولت اتحاد الآخرين التارمة لتكسب الأمر
ولكن المصريين قدموا موعد الهجوم ، لإحباط المحاولة الإسرائيلية حقيقة ،

سنة جنود ، هم كل ما تبقى من الفرقة كلها

سنة اسود ، انتهت رصاصاتهم على الاسرائيليين كالمطر ،
قبل حتى ان يهبطوا إلى الأرض ..

كانت الإصابات تملا أجسادهم ، واندماء تفرق زيارهم ،
ولكنهم قاتلوا كآلف ألف رجل .

ولان رصاصاتهم انطلقت من اعلى ، فقد تجاوزت السواتر
الرممية القوية ، وراحت تحصد الاسرائيليين حصداً .

ويكن حماس وفرحة الدنيا ، هتف (أدهم) :
- مرحى .

ثم اشترك في القتال ..

وبسالة مدهشة ، وثب يتجاوز الدبابة المحطمة ، وهو
يطلق رصاصات مدفعه الآلى بلا هوادة ..

وسقط واحد من رجال الصاعقة .

ثم ثان ..

وأصيب ثالث إصابة خطيرة .

ويكن كر قطرة من دمانهم الدكية الغالية ، كان لها ثمن غالى
للغاية ..

لقد حصدوا الاسرائيليين ، وابادوهم عن اخرهم

فيما عدا ضابطهم ..

وبذعر لا محدود ، القى الضابط الاسرائيلى مدفعه الآلى ،
ورفع نراعيه فوق رأسه ، هاتفاً :

- لا تطلقوا النار .. إقتى أستسلم .

رفع أحد جنود الصاعقة مدفعه نحوه ، ولكن (أدهم) هتف
به فى صرامة :

- إياك أن تفعلها نحن لا نقلل الأسرى والعزل .

اندفع الجندى ، لإنقاء القبض على الضابط الاسرائيلى ، فى
حين أسرع (أدهم) إلى المقدم (راشد) هاتفاً :

- رباه ! لقد وصنتم فى الوقت المناسب تماماً . حمداً لله
على سلامتكم .. لقد تصوّرت أن ...

قاطعته المقدم (راشد) ، وهو يستند إلى حطام الدبابة فى
ألم :

- لقد سحقونا بالفعل .

وعضّ على شفتيه ، وهو يشير إلى الرجال الثلاثة الذين
تبقوا .. مضيقاً :

- هؤلاء كل من تبقى ، من فرقة صاعقة .

غمغم (أدهم) :

- لقد أدوا واجبهم .

هز المقدم (راشد) رأسه ، مغفماً في مرارة :

- ولكن المواجهة الحقيقية لم تبدأ بعد ، ولم يتبق منا ما يكفي لمواجهة فريق من الإسرائيليين .

التقط (أدهم) نفساً عميقاً ، وقال :

- كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله * .

تهدد المقدم (راشد) ، متعنماً :

- ونعم بالله (العلی القدير) ..

ثم عاد بهز رأسه ، مضيقاً :

- ولكن بحالتنا هذه ، لست أعتقد أن أمامنا فرصة كبيرة ..

انتبه (أدهم) ، في هذه اللحظة فقط ، أن ساق المقدم (راشد) مصابة بشدة ، فهتف :

- يا إلهي ! إنك تحتاج إلى إسعاف عاجل يا سيادة المقدم

هز المقدم (راشد) رأسه ، قائلاً :

- لم تعد هناك فرصة لهذا . القيادة أبلغتنا منذ قليل ، أن نبدأ القتال فوراً .

(*) القرآن الكريم : سورة البقرة - الآية ٢٤٩ م .

هتف (أدهم) بسعادة غامرة :

- حقاً ؟

ثم عاد يتساعل في لهفة :

- ولكن .. أيعنى هذا أن جهاز اللاسلكي قد نجا ؟

أوماً المقدم (راشد) برأسه ، وهو يعرض شفته ، محاولاً السيطرة على آلامه ، مجيباً :

- حمداً لله .

قال (أدهم) في سرعة :

- عظيم لا بد أن نبلفهم إذن أننا هنا ، وأننا قد سيطرنا على المعمر بالفعل .

التقط المقدم (راشد) نفساً عميقاً ، وقال :

- لقد أبدنا كتيبة الحراسة ، أما السيطرة على المعمر ، فأمر مختلف تماماً

صمت (أدهم) بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن قال في حزم :

- كل ما علينا هو أن نؤدي واجبنا ، و ...

« هراء .. »

انطلقت الصيحة في مقت ، من بين شفطي الضابط الإسرائيلي ، فالتفت إليه الكل في غضب ، جعله يرتبك ، قائلاً :

- القيادة لن تسمح لكم ابدا بالسيطرة على مصر حيوي كهذا .
إنها ستحشد كل قواتها لاختراقه . مهما كلفها هذا ، وأنتم
مجرد شرذمة مصاية ، واثنان منكم يحتضران

رمقه (أدهم) بنظرة نارية ، فتابع في عصبية .

- كيف تصوّرتم أن بإمكانكم فعل هذا ؟!

مال (أدهم) نحوه ، قائلاً في صرامة :

- أنتم لم تتصوروا أن نهزمكم .. أليس كذلك ؟!

قال الضابط الإسرائيلي في حدة :

- هذا أمر مختلف . لقد باعتمونا ، دون أن نستعد ، ولكن
القيادة تعلم الآن بوجودكم ، وستواجهكم بمنتهى الشراسة

احتقن وجه المقدم (راشد) ، وهو يقول في غضب صارم :

- قل لي أيها الوغد : أما زال غرورك يصور لكم أنكم
الأقوى ؟! هل صدقتم خرافة جيش (إسرائيل) الذي لا يقهر ؟!

انتفض جسد الإسرائيلي ، وهو يهتف :

- جيشنا حقاً لا يقهر . وسنثبت لكم هذا مرة أخرى أيها

العرب . كما لقناكم الدرس ، في يونيو ١٩٦٧م

احتقن وجه المقدم (راشد) أكثر ، وهو يهتف :

- أيها الله ...

قبل أن يتم هتافه . دار رأسه في عنف ، واظلمت الدنيا بفتة
أمام عينيه ، و ...

وهوى ..

وبصرخة لوعة . وثب (أدهم) يلتقطه بين ذراعيه ، قبل
أن يسقط أرضاً ، وهو يهتف :

- رباه ! لقد فقد الوعي ..

قال الإسرائيلي في عصبية :

- أهذا هو الجيش ، الذي ستحاربوننا به ؟!

صاح به (أدهم) في صرامة :

- اصمت .

ولكن الإسرائيلي تابع بلهجة شامتة :

- فقداته الوعي من حسن حظه ، فلن يشعر بما ستفعله
قواتنا ، عندما تأتي لإرسائكم إلى الجحيم . و ..

قبل أن يتم عبارته المستفزة ، دار (أدهم) على عقبه فجأة .
وهوى على فكه بكمة منه كالقنبلة ، انتزعته من مكانه ، ودفعته
ثلاثة أمتار كاملة إلى الخلف ، قبل أن يسقط فاقد الوعي .

وفي صرامة ، غمغم أحد الجنود الثلاثة العتيقين :

- أحسنت يا سيدي .

اتعقد حاجبا (أدهم) ، وهو ينحنى ، ليفحص إصابة المقدم (راشد) ، قبل أن يغمغم بقلق بالغ :

- رباه ! الأمر أخطر مما كنت أتصور .

ونهض مفكراً في عمق ، فسأله أحد الجنود :

- هل تعتقد أننا نستطيع التصدي لقواتهم وحدنا يا سيدي ؟!

استدار إليه (أدهم) في صمت ، استغرق بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

- ربما أمكننا أن نعطلهم بعض الوقت .

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف في شيء من الشرود :

- وهذا كل ما تتشده القيادة .

غمغم رجل آخر :

- لن يكون هذا سهلاً .

أجابه (أدهم) في صرامة :

- ولن يكون مستحيلاً .

ثم استدار يواجه الجنود الثلاثة ، متابعاً :

- اسمعوني جيداً يا رجال الموقف ليس بسيطاً بالتأكيد ..

وما دامت القيادة قد أعلنت إشغال الموقف ، فهذا يعني أن الإسرائيليين قد أدركوا حتماً ما يواجههم ، ولن يمضي وقت طويل ، حتى تنقض قواتهم على الممرات ، بكل شراسة الدنيا ؛ لأن من يسيطر على الممرات سيحقق تفوقاً كبيراً ، في الساعات الأولى للحرب .

والتقط نفساً عميقاً ، قبل أن يستطرد :

- من المؤكد أننا لن نتجاوز هذا الأمر ، وكل قواتين العقل والمنطق تؤكد أننا سنلقى حتفنا حتماً ، ولكننا سنكون قد أدينا واجبنا ، ومنعنا إمدادات العدو من العبور .

وشد قامته ، مضيقاً في حزم :

- هل يمكنكم مواجهة هذا ؟!

تبادل الجنود الثلاثة نظرة صامتة ، ثم شد كل منهم قامته بدوره ، وضرب كعبيه ببعضهما ، وارتفعت أيديهم بالتحية العسكرية في آن واحد ، وحناجرهم تنطق عبارة حملت أصواتهم وحزمهم وحماسهم :

- كلنا رهن إشارة (مصر) .

لوماً (أدهم) برأسه ، وتطلع إليهم بنظرة احترام وتقدير ، وهو يقول :

- هذا ما توقعته منكم .

ثم وضع يده على كتف أحدهم ، متابعاً :

- (صالح) .. لدى مهمة خاصة لك .

هتف جندي الصاعقة في حماس :

- أمرك يا سيادة الملازم .

تطلع إليه (أدهم) لحظة في صمت ، ثم قال بلهجة أمرة .

- إبنى ألمح سيارة جيب ، نجت من القتال هنا .. احمل إليها

المقدم (راشد) ، وزميلك المصاب ، وانطلق بهما نحو الغرب

ارتفع حاجبا الجندي في دهشة مستكرة ، وهو يهتف :

- نحو الغرب ؟! هل تطلب منى التراجع ، وحرمان نفسى

من القتال والاستشهاد فى سبيل الله والوطن يا سيدى ؟

أجابه (أدهم) فى حزم :

- زميلك والمقدم (راشد) بحاجة إلى إسعاف عاجل ولو

سارت الأمور على ما يرام ، ونجحت قواتنا فى عبور قناة

(السويس) ، واقتحام خط (بارليف) ، ستجد نفسك أمام قوات

مصرية ، فى مساء اليوم على الأرجح ، لو اتخذت مساراً يتفادى

وحدات الجيش الإسرائيلى ، الذى سينشغل حتماً فى القتال

غمغم الجندي :

- ولكن يا سيدى ..

قاطعه (أدهم) فى لهجة صارمة أمرة :

- أطع الأوامر أيها الجندي .

عض الجندي شفتيه ، والمرارة تعصر قلبه ، لأنه سيضطر

إلى التخلي عن المواجهة ، التى حلم بها طويلاً ، فتابع (أدهم)

بابتسامة شاحبة ، وهو يضع يده على كتفه مرة أخرى

- ومن يدري ؟! ربما التقيت ، بعد نهاية الحرب ، هناك

فى (القاهرة) .

قاوم الجندي دموعه فى صعوبة ، وأدى التحية العسكرية فى

قوة ، ولكنه لم يكد بخفض يده ، حتى وجد نفسه يندفع نحو

(أدهم) ، ويحتضنه فى قوة ، هاتفاً من وسط دموعه ، التى

عجزت عن الاختباء خلف عينيه :

- وفقكم الله يا سيادة الملازم وفقكم الله

ربت (أدهم) على ظهره ، قائلاً :

- سنلتقى بإذن الله .

تراجع الجندي ، وأدى التحية مرة أخرى بقوة أكبر ، وبسند

(أدهم) ، وأشار إلى الضابط الإسرائيلى الغافد الوعى

« المصريون أشعلوا الحرب .. »

هتف ضابط إسرائيلي بالعبارة في ارتجاع ، وهو يعدو عبر
ممرات مبنى أمن الممرات ، فستوقفه (باراك عمتى) في
ثورة ، وهو يمسك كتفيه في قوة ، هاتفًا :

.. ماذا تقول يا رجل ؟!

انتفض الضابط من فرط الانفعال ، وهو يهتف

.. المصريون أشعلوا الحرب .. أسراب مخيفة من طائراتهم
عبرت القناة ، على طول خط المواجهة ، في لحظة واحدة
بالضبط ، وبتوقيت دقيق إلى حد مذهل ، وقصفت كل مطاراتنا
وبطاريات مدافعنا في قلب (سيناء) ، وجنودهم يعبرون القناة
الآن .. آلاف منهم يعبرونها ، والمراقبون في خط (بارليف)
يقولون إن المشهد مخيف للغاية .

اتسعت عينا (باراك) ، وهو يهتف :

.. يعبرون القناة ؟ الآن ؟ في وضوح النهار ؟

نوح الضابط بيده ، هاتفًا :

.. إنه كابوس .. كابوس .

اتعقد حاجبا (باراك) في شدة ، وهو يهتف .

.. قيد هذا الوغد واحمله معك .. ولا تنس أن تكلم معه ،
فهو أسير مهم ، وربما ينقذ وجوده معكم حياتكم ، إذا ما حدثت
مواجهة ، بينك وبين الإسرائيليين .

قال الجندي في حزم :

.. أمرك يا سيادة الملازم .

وصافح زميله ، الذين سيقيان مع (أدهم) لحماية الممر ،
وتعاون معهم لنقل المقدم (راشد) ، والجندي المصاب ، والضابط
الأسير إلى السيارة (الجيب) ، التي تم ملء خزائنها بالكامل
بالوقود ، ثم انطلق لتنفيذ الأمر .

وفي صمت ، تابعه (أدهم) والجنديان بأبصارهم ، حتى
اختفى ، ثم التفت هو إلى الرجلين ، وهو يقول في حزم .

.. والان أيها الزميلان ، دعونا نستعد للمواجهة

أدى الجنديان التحية العسكرية في قوة ، وهما يهتفان :

.. أمرك يا سيادة الملازم .

نطقا عبارتهما ، وعقلاهما يتساءلان في قلق حقيقي : ترى
هل يمكن ثلثتهم أن يتصدوا بانفعل للقوات الإسرائيلية ، وأن
يمنعوا الإمدادات من عبور الممر ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

- وهذا من ادبيات السبيل^{١٤} المفترض ان تحين سطح القناة الى حديم ، وتسحق تسعين في المائة من موجة الهجوم الأولى .
هز الضابط رأسه في قوة ، قائلاً :

- السيد السبيل لم تعمس الرحال أظنقوها ، فور بدء العبور ، ولكنها لم تعمل .. يبدو أن المصريين قد ..

قاطعه (باراك) في غضب :

- المصريون لم ينتصروا غيب حتى لو تمكنوا من عبور القناة ، وتجاوز خط (سرييف) ، وهذا ما أشك في حدوثه ، فسترسل القيادة كل قواتها إلى هناك ، و ...

سرع عبرته دفعة واحدة ، والتفد حاجبيه على نحو مخيف ، وهو يهتف بغضب هائل ، ومقت بلا حدود :

- الممرات .

هتف الضابط :

- اد هس يبعث الاحبار^{١٥} قوات الصاعقة المصرية تقاتل كوحوش في الممرات من الواضح أنهم يحاولون منع أية امدادات ، من بلوغ خط المواجهة .

صاح (باراك) في حق :

- الأغبياء ! لماذا لم يصدقني أحد ؟ لماذا ؟ !

ثم أمسك ذراع الضابط بمنتهى القوة ، متابعاً في صرامة :
- ولكنني لن أنتظر ردود أفعالهم البطيئة ، وقراراتهم المترهلة فواهن على أن الارتباك قد ساد القيادة ، فور سماعهم الخبر ، وهذا يعني أنه من المحتم أن أتخذ القرارات وحدي .

سأله الضابط مرتاعاً :

- ماذا تنوي أن تفعل ؟ !

أجابه في صرامة :

- كنوي أن أجمع كل القوات الخاصة ، التي يمكنني جمعها ، مع طائرات الهليكوبتر المقاتلة الخمس ، وأنطلق إلى أكبر نقطة ضعف ، في خطة المصريين كلها .

غمغم الضابط في دهشة :

- نقطة ضعف ؟ !

نشار (باراك) إلى صدره ، قائلاً :

- نقطة الضعف ، التي صنعتها أنا ، عندما نسفت قمة ممر (متلا) ، قبل أن يدرك أحد الجهلاء ما يحدث

ثم التفت إلى الخريطة ، متابعاً :

- إبنى أعرف رجال الصاعقة المصريين جيداً .. سيقاتلون

كالوحوش عند المعمرين ، ولكن عددهم سيكون أقل بكثير عند
ممر (مثلا) ، بعدما فعلته بهم ، دون أن أدري .

ووضع سباته عند موضع ممر (مثلا) على الخريطة ،
مضيفاً ، بكل مقت وصرامة الدنيا :

- وهنا سأضرب ضربتي .

قالها ، وعيناه تتألقان على نحو عجيب ..

ومخيف ..

للغاية .

★ ★ ★

٨ - معزوفة الممر ..

انتشر نشاط جم ، في كل شبر من مركز العمليات الرئيسي
للمعركة في (القاهرة) ، وراح قادة أفرع الجيش المختلفة
يراجعون التقارير الواردة من جبهة القتال لحظة ف لحظة ،
واتسعت اهتمامات رئيس الجمهورية عن آخرها ، وهو يستمع
إلى تقرير قائد القوات الجوية ، قبل أن يقول :

- عظيم يا سيادة اللواء . عظيم .. الضربة الجوية حققت
نتائجها بأفضل مما يكون . لقد سحقت وحدات الدفاع الجوي ،
وبطاريات المدفعية المتقدمة ، ومطارات العدو في (سيناء) ،
وأمنت لأولادنا عبور قناة (السويس) . بأقل خسائر ممكنة ..
تبادل قائد القوات الجوية نظرة مترددة مع وزير الحربية ،
قبل أن يشذ قامته ، قائلاً :

- معذرة يا سيادة الرئيس ، لست أرغب في إفساد فرحتك ،
ولكن هناك خبر ..

قاطعه الرئيس (السادات) في توتر :

- أي خبر ؟! هل فشلت إحدى الطلعات الجوية ؟!

هز قائد القوات الجوية ، رأسه نفياً ، وقال :

- طلعاتنا كلها حققت أهدافها يا سيادة الرئيس ، ولكن .

هتف الرئيس في توتر أكثر :

- ماذا حدث بالضبط ؟!

أجابه الوزير هذه المرة في تردد :

- إنه خبر يتعلق بـ (عاطف) يا سيادة الرئيس .. الطيار
المقاتل (عاطف السادات) ، شقيق سيادتكم .

امتقع وجه الرئيس ، وهو يتسائل :

- هل .. هل ..

لم يستطع إكمال عبارته ، فغمغم الوزير :

- للأسف يا سيادة الرئيس .. الطيار (عاطف السادات) كان
أحد نسور الطلعة الجوية الأولى ، ولقد أراد له الله (سبحانه
وتعالى) الشهادة .

لوتجفت شفقا الرئيس ، وبدأ الانفعال واضحا ، في وجهه
الشاحب ، وعينيه الحزينتين ، اللتين التمعتا بدموع حبيسة ،
وهو يشيح بوجهه بضع لحظات ، في محاولة لمقاومة انفعاله ،
فتمتم وزير الحربية :

- سيادة الرئيس .. هل تحب أن نتركك وحدك لبعض الوقت ،

أم ...

قاطعته الرئيس في حزم :

- كلا .

ثم شد قامته ، وتابع :

- (عاطف) رحمه الله كان شقيقى الأصغر ، الذى رببته ،
وتعلقت به منذ طفولته ، وكنت أحبه كواحد من أبنائى . ولكنه
في النهاية مقاتل مصرى ، واجه كل ما واجه رفاقه ، ولو أن
الله (سبحانه وتعالى) قد كتب له الشهادة ، فهذا ليس مهززا
لإضاعة دقيقة واحدة ، في وقت قد تعنى فيه الثوانى الكثير^(*) .

وانتفت إلى الوزير ، يسأله :

- هل وصلت أية أخبار من الممرات ؟!

أجابه الوزير في سرعة :

- رجائنا نجحوا في السيطرة عليها يا سيادة الرئيس .

سأله الرئيس في اهتمام :

- وماذا عن عمر (مثلا) ؟!

صمت الوزير لحظة مترددا ، ثم أجاب :

- لم يعد لنا فيه سوى ضابط وجنديين يا سيادة الرئيس .

(*) واقعة حقيقية .

اتعقد حاجبا الرئيس ، وهو يقول :

- رباه ! إنها ثغرة بالغة الخطورة .

قال الوزير :

- هذا صحيح يا سيادة الرئيس

ثم استترك في سرعة :

- ولكنهم سيقاتلون ، حتى آخر قطرة دم .

تنهّد الرئيس ، قائلاً :

- كان الله في عونهم . وعوننا .

ثم أشار إليه ، مستطرداً :

- سل قائد الصاعقة ما الذى يمكننا أن نفعله من أجلهم

أوماً الوزير برأسه ، فتنهّد الرئيس مرة أخرى ، وقال :

وأبلغونى بتقارير العبور لحظة ف لحظة

غمغم الوزير ، وهو ينصرف مع قائد الطيران .

- بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. بالتأكيد .

ظلّ الرئيس على وقفته ، حتى انصرف الرجلان ، ثم ترك جسده

يسقط على مقعده ، وعاد يشيح بوجهه ، مغفماً بحزن غامر :

- اه يا (عاطف)

وانحدرت من عينيه دمعة ..

دمعة لم يرها أحد ..

قط ..

* * *

« من أمن الممرات إلى كتيبة حراسة ممر (مثلاً) .. أجب ..
حدد . الموقف الحالى .. »

كرّر (باراك) النداء ثلاث مرات ، وهو يتجه مع طائرات
الهليكوبتر الخمس نحو الممر ، فغمغم الطيار فى خفوت عصبى :
- طاقم الدبابة قال إنهم قد فقدوا جهاز الاتصال اللاسلكى منذ
البداية

أجاب (باراك) فى عصبية :

- وماذا عن الدبابة الأخرى ؟! ألا تحوى بدورها جهاز اتصال
لاسلكى ؟! المفترض أن تكون فى مجال البث الآن .. لماذا
لا تستجيب إذن ؟!

ترنّد الطيار لحظة ، قبل أن يقول :

- ربما كان المصريون قد ...

قاطعه في غضب :

- المصريون . المصريون . ماذا أصابكم جميعاً ؟ هل غرقتم في بحر من الهلع ، لمجرد أنهم يحاولون عبور القناة ؟! إنها مجرد صحوة كاذبة ، وسقرون أننا سنهزمهم شر هزيمة ، وسنلقاهم درساً يعلمهم أن يقبوا في بيوتهم ، وألا يحاولوا التصدي لتوسعاتنا الأمنية قط .

هز الطيار كتفيه في توتر ، مغمفاً :

- اتعظم هذا .

رمقه (باراك) بنظرة غاضبة ، ثم عاد يكرر النداء ، في عصبية شديدة :

- من الأمن إلى الحراسة .. أجب .

لاح الممر في تلك اللحظة ، فاندفعت طائرات الهليكوبتر الخمس نحوه ، والطيار يتساعل :

- ماذا سنفعل هذه المرة ؟!

أجابه (باراك) في حدة :

- سنقصفهم بالطبع .

سأله الطيار :

- نقصف من ؟!

هتف به (باراك) في غضب :

- المصريين بالطبع يا رجل .

أطلق الطيار زفرة متوترة ، وهو يقول :

- أين بالضبط ؟! لو أنك كنت محقاً من البداية ، فهذا يعني أنهم الآن داخل الممر ، ولن يمكننا قصفهم هناك .

سأله في حيرة :

- لماذا ؟!

أجابه في سرعة :

- لأننا لو فعلنا ، سنهدم جدران الممر فوق رؤوسهم ، وسنكون في الوقت ذاته ، قد سدنا الطريق أمام إمداداتنا ، ولن تغفر لنا القيادة هذا أبداً .

تعتقد حاجبا (باراك) في عصبية ، أمام هذا المنطق المقنع ، وتراجع في مقعده بتوتر بالغ ، وهو يعيد دراسة الأمر كله .

اتوقع أنه لم ينتبه إلى هذه النقطة ، وهو يعد العدة للهجوم على المصريين في ممر (متلا) ..

وهو لا يدري حتى كيف لم ينتبه إليها ..

الطائرات لن تفيد بالفعل ، لو أنهم قد سيطروا على الممر

ولكنها على الأقل ستحاصرهم هناك ..

وستحصى فرقة القوات الخاصة . التي تتجه إلى
الممر .

القوات الخاصة الإسرائيلية .

فرقة قوامها ستون جندياً ، المفترض أن تبقى لحماية
الخطوط الخلفية .

ولكنه اتخذ قراراً ، على مسئوليته الخاصة ، بحملها إلى
ممر (متلاً) ..

وكان هدفه أن يخترق الممر ، بأسرع وأعنف وسيلة ممكنة ،
حتى يصنع ثغرة في ذلك الحاجز ، الذي أقامه المصريون ، يمكن
من خلالها تمرير كل الإمدادات اللازمة ، إلى خطوط المواجهة ،
في الوقت المناسب ..

إذن فالقصف بالصواريخ لن يفيد ..

بل على العكس ، سيفسد الهدف الرئيسي لل خطة كنها .

وينسف رغبته في إثبات تفوقه أمام الرؤساء .

لا بد من خطة بديلة سريعة إذن ..

خطة تعتمد على القوات الخاصة ..

وحدها ..

بلغت طائرات الهليكوبتر الممر ، في تلك اللحظة ، فسأله
الطيار في قلق :

- والآن ماذا ؟!

اعتدل (يراكـ) ، وكأنما يفوق من حلم عميق ، وقال :

- سنبقى نحن هنا ، على أن تعود الطائرات الأربع الأخرى ؛
لالتقاط بعض جنود القوات الخاصة .

سأله الطيار في دهشة :

- لماذا ؟!

أجاب ، وكأنما يتحدث إلى نفسه :

- ليس من السهل أن تجد مظليين ، في ظروف سيطر فيها
الطيران المصري على الموقف ، ولكننا نستطيع نقل بعض
الجنود ، إلى الجانب الغربي من الممر ، بحيث يمكنهم أن يطبقوا
على المصريين داخله من الجانبين ، مع الفريق الذي سيأتي
من الشرق .

غمغم الطيار :

- خطة أبسط مما ينبغي .

أجابه في حزم :

- وأكثر فعالية مما تتصور .

وصمت لحظة ، ثم استطرد :

- وخاصة أنهم أقل عددًا بكثير . وربما أكثر مما تتصور
أيضًا .

قال الطيار في عصبية :

- على الرغم من صعوبة الموقف ، فأنت تتحدث عنه ، كما
لو كان مجرد نزهة .

أجابه في صرامة :

- إنه كذلك .

وتألفت عيناه بذلك الشر ، وهو يضيف :

- وسترى أننا سنسحق هؤلاء المصريين بلا رحمة .. خلال
ساعة واحدة ..

وعاد يسترخى في مقعده ، مكملًا :

- على الأكثر .

وتألفت عيناه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

احتقن وجه الجنرال (دان زورسكى) في شدة ، حتى بدا أشبه
بقلب بطيخة ناضجة ، وهو يهتف ، في وجه لركان حربه :

- ماذا تقول ؟! (عمتاى) خرج مع فرقة من القوات الخاصة ،
وخمس طائرات هليكوبتر ، لمهاجمة المصريين عند معبر
(متلا) ؟! وما شأن (باراك عمتاى) بأمر كهذا ؟! إننا رجال
مخابرات ، ولسنا قادة جيوش .

ترنّد الضابط لحظة ، قبل أن يقول :

- ربما لا يكون الأمر سيئًا للغاية يا سيدى الجنرال .

صرخ الجنرال في ثورة :

- لا يكون ماذا ؟! هل أصابتك عدوى الجنون ، مثل ذلك
المأفون ، الذى يتحرك بمبادرات فردية ، بعد أن اندلعت الحرب
الشاملة بالفعل ؟!

قال الضابط متوترًا :

- لقد كان على حق ، عندما قال إن المصريين هناك

صاح الجنرال :

- هذا لا يعنى أنه على حق دائمًا .

سال الضابط نحوه ، قائلاً :

- لماذا لا نمنحه الفرصة لـ ..

قاطعه الجنرال في ثورة :

- الفرصة ؟! أية فرصة ؟! إنها ليست مجرد حملة هزلية
يا رجل .. إنها الحرب . الحرب . هل تفهم ؟! الحررررب .

ابتسم الضابط ابتسامة خبيثة ، وهو يقول .

- ربما كان على حق ، في هذه المرة أيضاً .

صاح الجنرال :

- وماذا حتى لو أنه كذلك ؟!

لوح الضابط بمنابته ووسطاه ، قائلاً :

- في هذه الحالة ، يمكننا أن نربح ، مع الاحتمالين

حذق الجنرال فيه بدهشة عصبية ، وهو يتساءل :

- ماذا تعني ؟!

استعاد الضابط تلك الابتسامة الخبيثة ، وهو يجيب :

- أعني أنه لو كان على حق ، وأمكنه صنع تلك الثغرة ،
ونقل الإمدادات إلى الجبهة ، سنقول : إنه قد فعل هذا بأوامر
منك يا جنرال ، أما لو فشل ، فسنعاقبه بشدة ، باعتبارها
مبادرة فردية ، قام بها وحده ، دون إبلاغ القيادة

انعقد حاجبا الجنرال ، وهو يفكر في عمق ، قبل أن يغفم :
- هل تعتقد هذا ؟!

أوما ضابط أركان الحرب برأسه ، قائلاً :

- بكل تأكيد يا جنرال .

صمت الجنرال فترة أطول ، وهو يدير الأمر في رأسه بإمعان ،
ثم لم يلبث أن ابتسم في توتر ، مغفماً :

- فليكن . سنمنحه بعض الوقت ، قبل أن نتخذ القرار ..

وعاد يجلس خلف مكتبه ، مضرباً :

- دعه يمضي في حربه مع المصريين . وسنرى ..

نعم يا جنرال .. سنرى .

الكثير .

جداً ..

كل شيء بدا هادئاً صامتاً ساكناً ، على جانبي المعمر

كل شيء ..

طائرات الهنيوكوبتر الإسرائيلية نقلت عشرين جندياً ، من
جنود القوات الخاصة الإسرائيلية ، إلى الجانب الغربي للممر ، حتى
يتم اقتحامه من الجانبين في آن واحد ..

وفي لحظة واحدة تقريباً ، اقتحم الإسرائيليون العمر ، من
الشرقي والغرب ..

كانت أسلحتهم مشهورة .. وسباباتهم متحفزة ، وعيونهم
متربصة ..

ولكن أحداً لم يكن هناك ..

وفي حيرة ، اتصل قائد الفرقة الغربية بالهليوكوبتر الرئيسية ،
قائلاً :

- المكان خال تماماً .. لا يمكننا رؤية أى شيء من هنا .

سأله (باراك) في توتر :

- وماذا عن رجالنا ؟!

أجابه الرجل ، في توتر أكثر :

- لا أحد . جنودنا أو جنودهم . العمر خال تقريباً ، إلا من
بعض براميل الوقود ..

اتفقد حاجب (باراك) في عصبية ، وهو يضغط قرصاً
مستديراً ، في سماعة جهاز اللاملكي ، قائلاً :

- من النسر الأم إلى الفرقة الشرقية . ماذا لديك ؟

أجابه قائد الفرقة الشرقية في حذر :

- من الواضح أن قتالاً عنيفاً قد دار هنا ، والدبابات محطمة
البرج ، وقد لقي كل طاقمها مصرعه داخلها ، الجثث عديدة ،
بعضها يرتدى الزي العسكري الإسرائيلي ، ورجلان يرتديان ثياب
قوات الصاعقة المصرية ، وهناك بعض براميل الوقود عند
المتنخل .

هتف (باراك) في حدة :

- براميل الوقود ؟! وماذا تفعل براميل الوقود فـ ...

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، قبل أن
يصرخ بكل قوة الدنيا ، على كل الموجات :

- تراجعوا .. تراجعوا بأسرع ما يمكنكم ..

ومع آخر حروف صرخته ، أطلق (أدهم) ورفيقاه
رصاصاتهم ، من مكنهم بين الصخور ..

ودوى انفجاران رهيبان ..

انفجرت براميل الوقود في عنف ، وتطايرت منها السنة
الذهب لمسافات طويلة ، لتفمر مدخني العمر عن آخرهما

واتنطقت صرخات رجال القوات الخاصة الإسرائيليين ، وهم
يعدون في كل مكان . وقد تحولوا مع الوقود المشتعل إلى كتل
من الذهب ، راحت تتساقط في كل مكان ..

ومن داخل الهيوكوبتر ، شاهد (باراك) ذلك المشهد
الرهيب . فاستعت عيناها عن آخرهما ، وكفل النهب تنتشر في
الصحراء ، في حين هتف الطيار في ارتياح :

.. رباه ! لقد خدعهم المصريون ..

عض (باراك) بشفتيه في مرارة وغيط ، وهو يحصى
الاجساد المشتعلة المتساقطة على رمال (سيناء) ، كشعلات
تحاول الانقضاء على ضوء الشمس ، التي راحت تسبح نحو
الافق ، في رحة المغيب ، مع دوى انفجارات القنابل ، التي
كانوا يحملونها في أحزماتهم ..

ثمانية عشر جنديا ، من القوات الخاصة الإسرائيلية لقوا
حلتهم ، في محاولة الاختراق الأولى ، وتحولوا إلى أشلاء
متناثرة مشتعلة ، على رمال (سيناء) ..

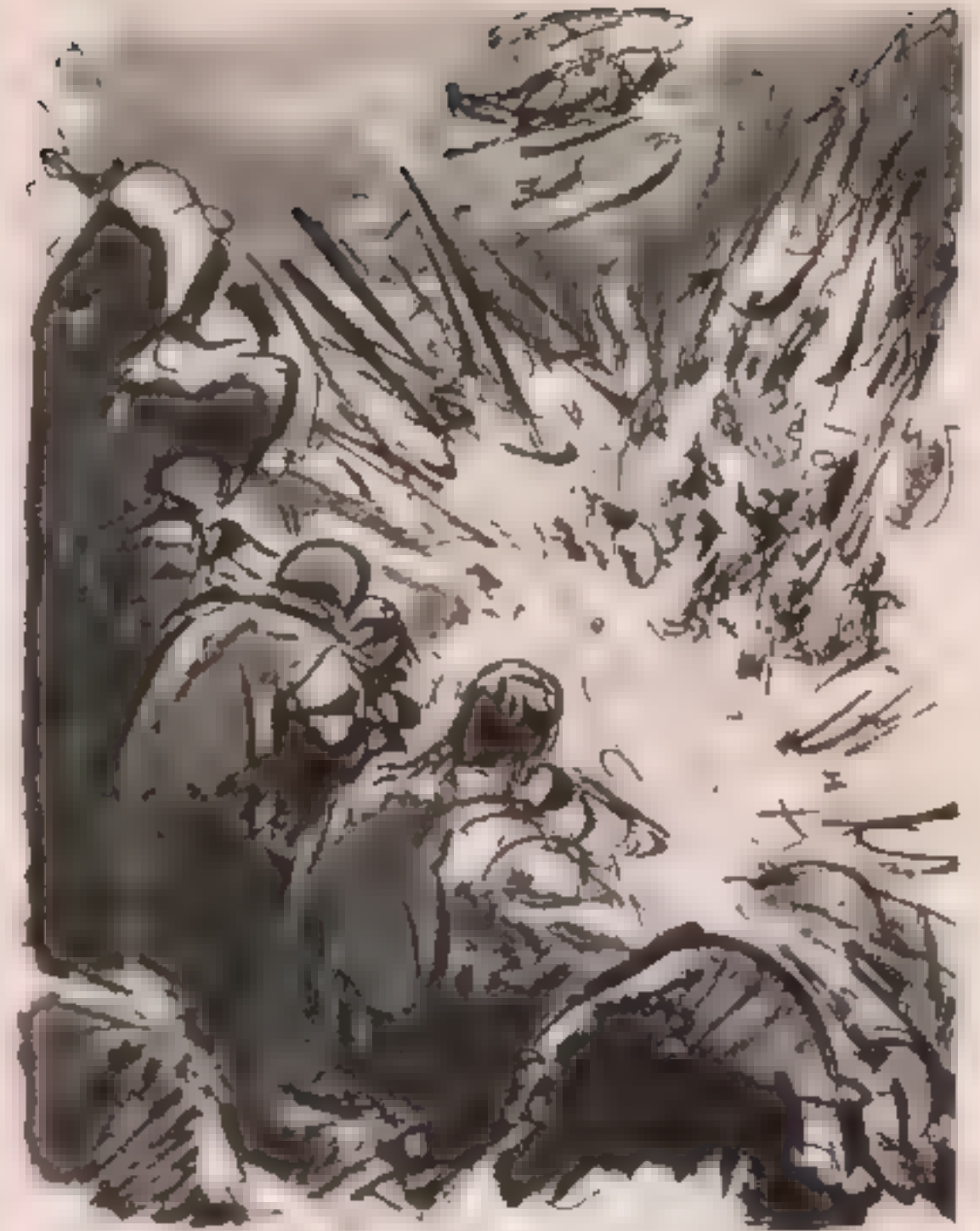
كما أن العمر نفسه قد تحول ، عند مدخله ، إلى بحر من
للهب ..

بحر يستحيل اختراقه ، قبل ساعة كاملة على الأقل

لقد أحسن المصريون اللعبة بحق ..

حتى وإن أغضبه وأحنقه هذا

وكن لا



ومع آخر حروف صرخته ، أطلق (أدهم) ورقيقاته رصاصاته . من

مكسهم بين الصخور ودوى انفجارات دهيان

لن يستسلم الآن ..

لقد انطلق بهذا الجيش الصغير على مسئوليته الخاصة ..

ولا يمكنه أن يفشل ..

أو ينتظر ..

القيادة في تل أبيب لن تهدأ ..

ولن تنتظر ..

لا بد أن يحقق نتيجة إيجابية ..

وسريعة ..

مهما كان الثمن ..

وبكل غضب وثورة الموقف ، هتف عبر اللاسلكي .

- أريد استطلاع الموقف . حاولوا الاقتراب من مدخلي المعمر ،

ومعرفة ما يدور هناك .

سأله قائد إحدى طائرات الهليكوبتر :

- هل نطلق النار داخل المعمر ؟!

هتف الطيار في توتر :

- لن يمكننا احتمال مسئولية تهيار الجدران ، وانسداد المعمر ،

و ...

قاطعه (باراك) بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول لقيادة
الطائرات الأخرى ، عبر جهاز الاتصال :

- استخدموا المدافع الآلية فحسب كبداية

أنته أصواتهم ، تطن تلبية الأمر .

وانخفضت طائرات الهليكوبتر الأربع إلى مدخلي المعمر .

وانطلقت الرصاصات كالمطر ، لتخترق حاجز السنته الذهب ،
وتنتشر عبر المعمر كله بلا استثناء ..

وخنف حطام تلك الدبابة ، بالقرب من المدخل الشرقي للمعمر .
هتف جندي الصاعقة (إبولود) :

- سيادة الملازم .. هل ستتركهم يغمروننا بنيرانهم هكذا ؟!

أجابته (لهم) في حزم :

- لقد أشعنا نحن النيران أولاً يا رجل ، وغیظهم يدفعهم إلى
ما يفعلونه .

قال (إبولود) في توتر :

- نيراننا لن تثبت أن تخبوا يا سيادة الملازم ، وسنكون
مضطرين عندئذ لمواجهتهم .

قال (لهم) بلهجة أمرة :

- اهدا واصمت .

ثم القى نصره على ساعته . التي أشارت عقربها الى الرابعة وعشر دقيق ، واصف :

- إنها مسألة وقت .

ثم حمل مدفعا مصدا للديبات على كتفه ، وهو يستطرد في حزم :

- وان عدحلا او احلا ، سيدونون الاكتراب أكثر . وعندئذ سنضرب ضربتنا .

فذهب ، وهو يراقب الهليوكوبتر ، عند المدخل الشرقي ، والتي راحت تتحفض أكثر وأكثر ، حتى يمكن لرصاصتها أن تحصن كل أثر للحياة داخل العمر ..

وفي هدوء عجيب ، ثبت المدفع على كتفه ، وصوبه إلى الهليوكوبتر في إحكام ، مضيفا :

- أرايت ! ها هي ذي تقترب .

ومع آخر حروف كلمته ، ضغط الزناد ..

وأطلق الصاروخ من المدفع ..

ودوى الانفجار ..

واحدة من طائرات الهليوكوبتر انسحقت سحقاً ، وشتتت بعض أجزائها في كل مكان . قبل ان يهوى الحراء الأكبر من جسمها عند المدخل الشرقي للممر . وتشتعل فيه النيران

وفي حدة . هتف (باراك) . عبر جهر الاتصال

- تراجعوا .. تراجعوا وانسحبوا قورا ..

بلغ الهتاف كل أجهزة اللاسلكي في آن واحد

وارتفعت الطائرات كلها في سرعة ..

فيما عدا واحدة ..

واحدة لم يكتمل ارتفاعها ..

فقد أطلق جندي الصاعقة (محمود) ، الذي يحمي المدخل الغربي نحوها صاروخاً آخر . اصاب ذيلها مباشرة ، فسقط في عنف ، على نحو جعلها تدور حول نفسها في عنف وقذف بصرخ :

- هولاء الـ ...

وقبل ان تكتمل صرخته ، ارتطمت مروحة طيرته بالرمال . وتحطمت في عنف ..

ثم دوى الانفجار الثاني ..

واتسعت عينا (باراك) عن آخرهما فى ارتياح ، والطيار
يهتف :

- إتهم .. إتهم وحوش بحق ..

صرخ (باراك) :

- إتهم مجرد ملاعين ، حالفهم الحظ .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتابع بعصبية بالغة :

- ولكن من المستحيل أن يكونوا قد نجوا مما فعلته بهم !
مستحيل ! لقد نسفت القمة كلها ، وأحلتها إلى جحيم حقيقى .

تألفت عيناه بغتة ، وهو يهتف :

- آه .. الجحيم ! كيف لم يخطر هذا ببالى ..

سأله الطيار :

- ماذا لديك بالضبط ؟!

لوح (باراك) بيده ، هاتفاً :

- النيران هى الحل يا رجل هم أشعلوها ، ونحن سنركبها
ونؤججها ، ونفمر بها الممر كله .

سأله الطيار فى حيرة :

- ماذا تعنى ؟!

تألفت عينا (باراك) أكثر ، وهو يقول :

- أعنى أنه ما من مخلوق حى ، يمكن أن يحتمل النيران .
وخاصة لو أحاطت به من كل صوب .

ثم التقط مسماع اللاسلكى ، هاتفاً :

- من القائد إلى الجميع .. سنهاجم مرة أخرى .. وفى هذه
المرة سنتبع ما علمنا إياه المصريون . سنضرب الممر كله
بقنابل النابالم الحارقة .. أريده جحيماً . جحيماً حقيقياً .

ثم أنهى الاتصال ، والتفت إلى الطيار ، قائلاً :

- هذا لن ينسف الجدران .. أليس كذلك ؟!

قالها ، وهو يتسم ابتسامة عجيبة ، على الرغم من كل هذه
الظروف .

ابتسامة شيطان ..

إسرائيلى .



٩ - قلب اللهب ..

انتفط الرئيس (السادات) نفساً عميقاً من غليونه ، ونفث الدخان في بطنه ، قبل أن يتمتم :

- أكثر ما أفقده في نهار رمضان هو هذا الغليون

ثم ابتسم ابتسامة باهتة ، مستطرذا :

- على الرغم من أنها عادة سيئة للغاية . الواقع أنني أحاول الإقلاع عنها هذه الأيام .

ومل يسأل وزير الحربية ، في اهتمام شديد :

- ما موقف قواتنا الآن ؟

بدا الارتياح على وجه الوزير ، وهو يجيب :

- أكثر من ممتاز يا سيادة الرئيس . الواقع أنك لم تتوقع ابداً هذا التفوق المدهش . لقد عبر رجالنا القذة ، بخسائر تقل بنسبة ثمانين في المائة . عن كل ما كان متوقعا ، وقبل غروب الشمس . كنا قد اقتحمت وسيطرت على سبعين في المائة من خط (سرييف) ، ونفذ قدم سلاح المهندسين باتشاء الجسور والمعبر ، وديابانت تتدفق الآن على رمال (سيداء)

اغمض الرئيس عينيه ، متمتماً :

- حمدا لله الحمد والشكر لله (العلى التقدير)

وبدا لحظة وكأما يتمتم بصلاة قصيرة ، قبل أن يفتح عينيه . متسائلاً :

- وماذا عن السيطرة الجوية ؟

أجابه قائد الطيران :

- شبه تامة يا سيادة الرئيس . الإسرائيليون يقاومون بشراسة ، ولكن صواريخ (سام - ٦) الدفاعية باعنتهم بحق ، كما ان كفاءة نسورنا قد اربكتهم ، عندما تساقطت طائراتهم المتقدمة أمامنا .

تتهاد الرئيس ، متمتماً :

- عظيم .

ثم اعتدل يسأل قائد الصاعقة ، في اهتمام متزايد .

- وماذا عن المعمرات ؟

شد الرجل قامته ، وهو يجيب :

- سيطرتنا عليها كاملة ، حتى هذه اللحظة يا سيادة الرئيس

نفث الرئيس دخان غليونه مرة اخرى ، متسائلاً -

- وممر (مثلا) ؟

أجابه قائد الصاعقة :

- ما زال تحت سيطرتنا يا سيادة الرئيس .

قال الرئيس بدهشة تحمل كل نبرات الإعجاب :

- بضابط وجنديين ؟

أوما الرجل برأسه إيجابا ، فهز الرئيس رأسه ، مضغماً :

- عمار يا (مصر) بأبنائك وشبابك .

قال وزير الحربية :

- كل ما نحتاج إليه منهم هو أربع وعشرون ساعة أخرى

يا سيادة الرئيس ، وبعدها لن يضربنا أن تعبر إمدادات العدو ،

فسنكون ، بإذن الله (العزيز القدير) ، قد سيطرنا على الموقف

تماماً .

قال قائد الصاعقة :

- ربما كان هذا ممكناً ، بالنسبة للممر الآخر ، ولكنه يبدو

مستحيلاً تماماً ، بالنسبة لممر (مثلا) ، فالإسرائيليون يدركون

حتماً أنه أضعف نقاطنا ، وسيركزون هجومهم عليه بشدة .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو ينفث دخان غليونه في توتر ،

قبل أن يعود لمزاول قائد الصاعقة :

- ألا يمكننا أن نفعل شيئاً لتدعيمهم ؟

هز الرجل رأسه في أسف ، قائلاً :

- الدعم الجوي مستحيل تماماً يا سيادة الرئيس ؛ لأن دفاعنا

الجوى لم يمتد لمسافة كافية ، لحماية طيران حر ، والممرات

ما زالت داخل نطاق العدو .

تساءل الرئيس في صرامة :

- وماذا عن استعادتهم فيما بعد ؟

تبادل الرجال نظرة صامتة متوترة ، ثم غمغم قائد الصاعقة .

- في موقف كهذا ، لست أظنهم ..

قاطعه الرئيس في صرامة :

- وماذا لو حدث العكس ؟ هل نتخلّى عنهم ، لمجرد أننا لم

نفترض إمكانية بقائهم على قيد الحياة ، في مواجهة كهذه ؟

تبادل الرجال نظرة أخرى ، ثم تساءل قائد الطيران في حزم :

- بـم تأمر يا سيادة الرئيس ؟

نفث الرئيس دخان غليونه مرة أخرى ، وقال بمنتهى الحزم

والصرامة :

- أريد منحهم تذكرة عودة .. وبأى ثمن .

ومرة ثالثة ، تبادل القادة نظرة صامتة ..

نظرة حملت الكثير ..

جدًا ..

« ماذا سنفعل الآن يا سيادة الملازم ١؟ »

نطق الجندي (إدوارد) السؤال في قلق شديد ، بعد أن خبت
النيران ، وساد الظلام العمركه ، وبدا من الواضح ان القوات
الخاصة الإسرائيلية ستشن هجومًا جديدًا حتمًا ، في أية لحظة ،
فأحكم (أدهم) الضمادة حول ساقه ، وهو يجيب في حزم

- اذهب لتنضم إلى (محمود) ، عند المدخل الغربي

صدم الجواب الجندي ، الذي انتفض هاتعًا :

- سيادة الملازم ، إننى لا أحشى الموت فى سبيل الوطن .

أومًا (أدهم) برأسه ، قائلاً :

- أعلم هذا يا (إدوارد) . أعلم هذا بكل تأكيد . ولكن ما اضيه

منك هو تكنيك قتلى بالدرجة الاولى ، فإسرائيليون سيهاجموننا

حتمًا ، بين لحظة وأخرى ، ونحن لا نمتلك سوى منظار واحد

للرؤية الليلية ، سأستخدمه أنا هنا ، لمنعهم من اقتحام المدخل

الشرقى ، وعليك أنت و (محمود) أن تبدؤوا قصارى جهدكم ،

لمنع أية محاولة منهم ، لاختراق المدخل الغربى

قال (إدوارد) فى توتر :

- ولكن الهجوم ستركز على المدخل الشرقى يا سيادة الملازم

أومًا برأسه مرة أخرى ، مغمغمًا :

- أعلم هذا .

ثم التفت نفسًا عميقًا ، وربت على كتف الجندي ، قائلاً :

- هيا .. اذهب .

قوم الجندي تأثره بضغ لحظات ، ثم قال بصوت مختنق :

- أعدك ألا ينجحوا فى اختراق المدخل الغربى ، إلا على جثتنا

يا سيادة الملازم .

غمغم (أدهم) ، وهو يربت على كتفه مرة أخرى :

- اذهب .

تراجع الجندي خطوتين ، ثم أدى التحية العسكرية فى قوة ،

ودار عن عقبه ، وانطلق يعدو لتنفيذ الأمر .

ولحماية المدخل الغربى للمر ..

أما (أدهم) ، فقد التفت نفس عميق ، قبل ان يلتقط المنظار

الخاص بالرؤية الليلية ، ويغمغم :

- على بركة الله .

وضع المنظار على عينيه ، ورفع مدفعه الآلى ، وصوبه إلى المدخل الشرقى للممر .

وجلس ينتظر ..

وينتظر

وينتظر .

ففى مثل هذه المواقف ، لا يمكنك أن تدرك أبدا كم مرّة بك من وقت ..

كل دقيقة تبدو أشبه بدهر كامل .

كل ثانية تحيا وكأنها لاتموت أبدا ..

والزمن يبدو وكأنه لايمضى قط ..

ولا يمكنك أن تعلم أبدا متى تأتى النهاية .

أو كيف ..

ففى نفس اللحظة ، التى كان فيها ينتظر ، كان (باراك)

يهتف بمنتهى الغضب ، عبر جهاز الاتصال :

.. ماذا تعنى بأنه لا توجد قتائل (نابالم) ؟! إنها حرب ،

وينبغى أن تكون كل الأسلحة والذخائر متاحة

أجابه ضابط التموين والذخيرة بهدوء مستقر :

- نعم . إنها حرب يا أدون (عمتاى) ، ويسعدنى أنك تدرك هذا ، ففى الحروب لا يمكن أن يتم صرف الأسلحة والذخائر بطلبات فردية ، ومن أشخاص لا يحق لهم هذا .

هتف (باراك) مستكراً وغاضباً :

- لا يحق لهم هذا ؟!

أجابه الضابط فى صرامة :

- نعم يا أدون (عمتاى) لا يحق لهم هذا .. أنت ضابط (موساد) ، ولست أحد قادة الجيش أو جنرالاته ، وليس من حقك أن تخوض هذه الحرب الميدانية من الأساس

صاح (باراك) :

هل تدرك حقيقة الموقف بحق يا هذا ؟! المصريون يحتلون الممر كله ، وقواتنا لم تصل بعد ، ولدينا فرصة لسحقهم تماماً ، وفتح ثغرة كبيرة ، يمكن أن تعبر منها قواتنا ، و

قاطعه الضابط بصرامة أكبر :

- ليس هذا من شأنى .

كاد (باراك) يجن ، وهو يصرخ :

- ليس من شأنك ؟! إنها حرب شمنة يارجل . أول حرب حقيقية ، بيننا وبين المصريين ، وهذا شأن كل إسرائيلى .. بل كل يهودى على وجه الأرض .

قل انصنط بنفس الصرامة انهادة المستقرة

- عظيم احصر على اذن من القيدة اذن ، باستخدام قنابل
الغابالم الحارقة ، وسأمنحك منها ما تشاء .

قالها ، ثم أنهى المحادثة في عنف ..

واحتقن وجه (باراك) في شدة ، من فرط الغضب والانفعال ،
فغمغم الطيار في حذر خافت :

- إنه على حق .

استدار إليه (باراك) في حدة ، هاتفا :

- على حق ؟

أجابه الطيار في سرعة :

- بالنسبة لمهامك الرسمية كضابط في (الموساد)

انتقى حذرا (باراك) في شدة . وهو ينقى نظرة على
ساعته ، قائلا :

- اقترب من منتصف الليل ، ولم نحسم الامر بعد ، بسبب
غياب وتفت ولرتباك الجميع .

قال الطيار في توتر :

- الاخبار تقول ان المصريين في (سيناء) يتفغن ، ومازالوا
يمتلكون السيطرة على جزء كبير من غربها . حتى انى اخشى
ان تفاجئنا طائراتهم بغتة هنا .

ازداد اتعقد حاجبي (باراك) . وهو يقول في صرامة

- وهذا يعنى حتمية ان نتحرك بتسريعة كافية

قالها ، ثم التفت مسماع اللاسلكى ..

وأصدر أوامره الجديدة ..

بكل الحزم ..

والصرامة ..

والغضب ..

سبع دقائق بعد منتصف الليل ، وم زال (ادهم) ورقيقه

متحفزين متأهبين ..

والوقت يمضى ببطء أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم بدأ الهجوم الإسرائيلي بغتة ..

وبلا مقدمات ..

اتنا عشر حندي إسرائيل فتحموا المدخل الغربى للممر

وعشرون جنديا فتحموا مدخله الشرقى ..

وكثهم راحوا يطلقون نيران مدافعهم الآلية بمنتهى الشراسة
والعنف ، وهم يندفعون إلى المعر من الجانبين
عملية تنظيف شاملة . تهدف إلى القضاء على كل أثر للحياة
في المكان ..

ولكن المشكلة أن هذا الهجوم كان متوقفا ..
وتقليدياً ..

لذا فقد احتسى (محمود) و (إدوارد) بصخور كبيرة ، عند
المدخل الغربى ، واحتسى (أدهم) بجسم الدبابة المحطمة ، عند
المدخل الشرقى ..

ولثانية أو ثانيتين ، ظل ثلاثهم صامتين ، ساكنين ..
ثم جذب (إدوارد) حبلًا قويًا ، يمتد إلى أعلى جدار المدخل
الغربى ..

ومع جذبته ، انفصل عنقود من القنابل اليدوية عن قتائله ..
وسقط وسط الجنود الإسرائيليين ..
ثم لوت الانفجارات ، فى تتابع سريع ..

وطارت أجساد الإسرائيليين فى عنف . فى نفس اللحظة التى
نهض فيها (إدوارد) من مكانه . وراح يطلق رصاصاته بكل
سخاء ، فى حين أطلق (محمود) نيران قاذفة الهمب التى
يحملها ، فى وجوههم جميعاً ..

ومع تردد دوى الانفجارات عبر النفق ، ضغط (أدهم) زناد
مدفعه

وراح يطلق النار ..

كل رصاصة من رصاصاته حصدت إسرائيلياً بلا هوادة

وبلا رحمة ..

كل رصاصة ..

دون استثناء واحد ..

وفوجئ الإسرائيليون بأنهم يتساقطون كالذباب ، دون أن يمكنهم
تحديد موضع تلك القناص المذهل ، الذى يجترهم على هذا النحو ..
وكاجراء دفاعى قتالى ، انتزع كل منهم قنبلة من حزامه .
وألغوا كل قنابلهم نحو المعر ..

ورأى (أدهم) اثنتى عشرة قنبلة تندفع نحوه .
وبسرعة ، خفض رأسه ، واحاطها بنراعيه ، واثنتى بحسده
كله . ليحتسى أكثر وأكثر بجسم الدبابة المحطمة
وففجرت القنابل كلها فى آن واحد ..

وكان دوى الانفجار هائلاً ..

قويًا ..

عنيفاً ..

ومن قرط عنقه ، دفع البرج المحطم للندابة ، فمال على نحو مخيف ، ثم هوى ..

فوق (أدهم) مباشرة ..

* * *

لم يبد وزير الدفاع الإسرائيلي غاضبا ثائرا ، في حياته كلها ، مثما كن في تلك الدقائق الاولى ، من يوم السابع من أكتوبر ١٩٧٣ م ..

كانت عقارب الساعة تشير الى الواحدة إلا الثلث صباحا ، عندما دلف الجنرال (دان زورسكى) إلى مكتبه ، وأدى التحية العسكرية ، قائلا :

- لقد طُلبت مقبلي فوراً يا سيادة الوزير

صاح به وزير الدفاع الإسرائيلي في غضب شديد

- اى تهريج هذا ، الذى يحدث فى قطاعتك يا (زورسكى) ؟ أصبح ان احد ضبظك قد أقحم قواتك فى معركة خاصة ، دون تخطيط مسبق ، فى منطقة المعمرات ؟

ارتبك (زورسكى) بشدة ، وهو يجيب :

- الواقع أن الضابط (باراك عمقاي) ..

قاطعه الوزير فى حدة :

- اسمه ورتبته لا يعنيانى ، فسيفقد كل شيء حتم ، بعد ما سيناله فى المحاكمة العسكرية .

ثم بلغت ثورته ذروتها بغتة ، وهو يصرخ

- ماذا تتصورون جميعاً ؟ هل صدقكم دعايتك . التى تقول ان جيشنا لا يقهر ، وأن العرب مجتمعين لا يمكنهم هزيمتك ، مهما فعلوا أوقاتلوا ؟ أنتم واهمون كنكم واهمون ينبغى أن تواجهوا الأمر بجدية أكثر . إنها حرب شاملة يا رجل هل تفهم ؟ حرب شاملة . المصريون بضربوننا من الجنوب ، والسوريون من الشمال ، وكلاهما يحقق نجاحا وتقدما ملموسا ، يؤثر خوف وذعر القيادات السياسية إلى أقصى حد ..

ثم تراجع فى مرارة عجيبة ، وهو ينوح بيده ، متابعاً :

- إنها أول مرة يحقق فيها المصريون تفوقاً عسكرياً ، منذ اللحظات الأولى للقتال . انهم يسيطرون على سماء المعركة بنسبة سبعين فى المائة على الأقل .

خيل لـ (زورسكى) أن الدماء قد غابت من جسده كله ، وهو يتمتم :

- سيدى الجنرال .. إبنى ..

قطعه وزير الدفاع الاسرائيلى ، وكأنما يرفض مجرد الاستماع إليه وإلى تفسيراته :

- إتينا ندرك مدى خطورة الموقف ، فقواتنا فى الخطوط الامامية تحتاج إلى تموين وذخائر وإمدادات سريعة . خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة ، والا فقدنا السيطرة على الموقف تماما

ثم نهض من حلف مكتبه بحركة حادة ، متابعاً فى عصبية :

- إتينا نستعد لهجوم شامل على الممرات ، خلال ساعتين على الأكثر ، ولواء كامل من دبابتنا يستعد للانتقال إلى غرب الممرات ، والسبيل الوحيد لهذا هو استعادة سيطرتنا عليها مرة أخرى .. باى ثمن كان .

واستعاد غضبه الهادر مرة أخرى بفتة ، وهو يصرخ .

- ولكن ليس بأسلوب صبياتى سخيـف ، كاذبى يتبعه ضابطك .

هذا للجنرال (زورسكى) وكأن مريرة الدنيا كلها قد استقرت فى أعماقه ، وهو يتمتم :

- أوامرك يا جنرال .

استدار إليه وزير الدفاع الإسرائيلى ، قنـلاً بصرامة :

- ما دام ضابطك المجنون هذا قد أشعل حربه الخاصة هناك ، دون أوامر منا ، وما دام قد بلغ ممر (متلا) قبل أن تبغـفه قواتنا النظامية ، فدعه هناك دعه يواصل الحرب ، حتى يرهق المصريين ، ويستنفد قواهم إلى أقصى حد ، قبل أن تصل القوات الفعلية ، لتسحقهم سحقاً .

واكتفى صوته بغضب وثورة لا مثيل لهما ، وهو يضيف :

- وبعدها سحاكمه بنفسى . وبمنتهى القسوة .

ولم تعد فى جسد الجنرال (زورسكى) ووجهه قطرة دم .

قطرة واحدة ..

تفجرت الدماء أنهاراً ، عند المدخل الغربى للممر ، وتساقط الإسرائيليون كالذباب ، مع الانفجارات والنيران والرصاصات

ولكنهم ، وعلى الرغم من هذا ، واصلوا القتال فى استماتة .

وراحوا يطلقون قنابلهم عبر الممر ..

ومع الانفجارات القريبة ، هتف الحندى (محمود) فى توتر :

- ذخيرتنا أوشكت على النفاد ، وانفجر القنابل داخل الممر ،

يكاد يمزق آذاننا .

أجابه (إدوارد) فى حزم :

- لا يمكن أن نتوقف عن القتال نقد وعدت سيده الملائم

لا يمكنهم العبور ، إلا على جثتنا .

تمتم (محمود) ، وهو يطلق السنة الذهب :

- يبدو أن هذا ما سيحدث للأسف .

عص (إدوارد) تفتيه . من شدة ما يشعر به من مرارة .
وهو يتمتم :

- وماذا ستفعل (مصر) عندئذ ؟! ماذا ستفعل ؟

زفر (محمود) ، قائلاً :

- لها الله .

لم يكذ ينطق عبارته ، حتى اتسعت عيناه عن آخرهما ،
وتفجرت بقعة من الدم في صدره ، وسقطت قذفة النهب من
يده . قبل ان يهوى هو إلى جوار (إدوارد) ، الذي صرخ :

- لا يا (محمود) .. لا !! ..

ثم ضغط زناد مدفعه الآلى ، صارخاً :

- أيها القتلة .. أيها الأوغاد .

ونكن مع نهاية صرخته ، توقف مدفعه عن العمل .

وأدرك الإسرائيليون هذا .

أدركوه عندما توقفت النيران فجأة ، من داخل الممر

وعندما لم يسقط منهم قتيل آخر ..

والدقيقة أو يزيد ، أوقفوا نيرانهم ، وأرهفوا أسماعهم ، للتيقن

مما حدث ..

ثم هتف أحدهم ، بلغة عربية ركيكة :

- استسلموا أيها المصريون لن تربحوا هذا القتال أبدا

جوابتهم لحظة من الصمت ، أعقبها صوت (إدوارد) ،
وهو يقول :

- إبنى استسلم .

هتف به الإسرائيلي :

- وماذا عن الباقين ؟!

مضت لحظة صمت أخرى ، قبل أن يقول (إدوارد)

- لا يوجد هنا سوى .

اتسعت عيون الإسرائيليين الأربعة ، الذين تبقوا من فرقة
الافتحام ، في دهشة بالغة . وأحدهم يتساءل :

- أنت مجرد رجل واحد ؟!

أجابه (إدوارد) ، وهو يبرز من حلف الصخرة الضخمة ،
التي كان يحتوى بها ، وقد رفع دراعيه فوق رأسه .

- كنا رجلين ، ولكن زميلى لقي مصرعه .

تطلع الإسرائيلي فى ذهول الى حثث رفاقه ، التي تفتersh
المكن ، واستعاد ذهنه مشهد الآخرين ، الذي اتسعت البيران

فيهم ، وفيما حملوا من قلوبهم ، وسحقهم سحقاً بلا رحمة ،
قبل أن يهتف :

- رجلان فقط ؟!

تبادل رفاقه الثلاثة معه نظرة شديدة التوتر ، ثم أشار أحدهم
إلى (إدوارد) ، قائلاً في صرامة :

- اقرب أيها المصري .

كانت مدافعهم الآلية مصونة إليه في تحفز ، وهو يتجه
نحوهم في ببطء ، وعيناه ترصدهم بنظرة غريبة ، فهتف به
أحدهم في عصبية :

- كيف فعلتما كل هذا ؟!

أجابه (إدوارد) في حزم :

- لقد وعدت .

سأله آخر في دهشة حذرة :

- وعدت ؟! وعدت من ؟!

ارتجفت شفقتا (إدوارد) في حزم . وهو يجيب :

- وعدت سيادة الملازم (أدهم) .

حينئذ للاسرائيليين أن الرجز قد فقد عقته ، فتبادلتوا نظرة
متوترة ، ثم سأله أحدهم في حدة :

- وعده بماذا أيها المأفون ؟!

خفض (إدوارد) يديه ، وهو يجيب في صرامة :

- بالآ تعبروا العمر ، إلا على جثتنا .

حدق الإسرائيليون الأربعة فيه بذهول مذعور ، عندما
انخفضت يداه ، واليسرى تحمل فتيل القنبلة ، التي تستقر في
اليمنى .

وقبل حتى أن يكتمل تحديقهم ، دوى الانفجار
بمنتهى العنف .

* * *

ثانية واحدة ، وينسحق الملازم أول (أدهم صبرى) تماماً ،
تحت برج الدبابة ..

ثانية واحدة ويلتقى بأفراد فرقته الانتحارية ، الذين دفعوا
لرواحهم ثمناً لنجاح عملية ، يعتمد عليها أمن وسلامة (مصر)
كلها ..

وبكل ما يتميز به ، من سرعة وخفة ، دفع (أدهم) جسده
إلى الخلف ..

ولكنه لم تنطم بصخرة صغيرة ..

واختل توقّنه ..

وهوى البرج ..

وارتطم بالأرض .

فى عنف ..

ومع سقوطه ، اندفع الاسرائيليون الثماتية ، الذين نجو من
المواجهة ، لنظفر بمن كندهم كل هذه الخسائر الرهيبة

ووثب ثلاثة منهم فوق جسم الدبابة ، وهم يحملون مدافعهم
الانوية ، فى حين انقسم الساقون الى قسمين ، اندفع كل قسم
منهم الى احد الجانبين ، للسيطرة على الموقف تماما

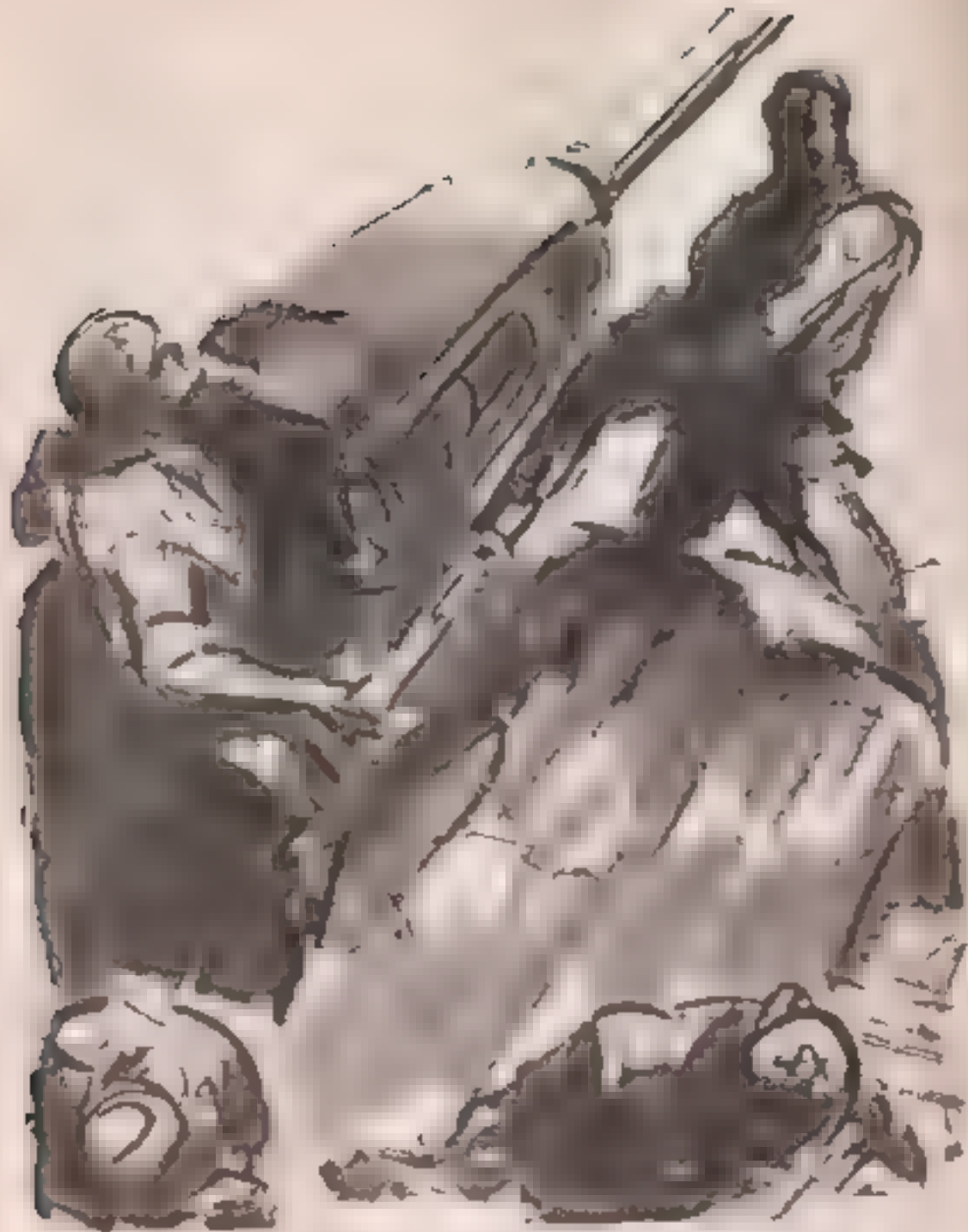
ولكن (ادهم) برز فجأة ..

برز من بين قمة البرج ومدفع الدبابة ، حيث انقذه القدر فى
ذلك الفراغ بينهما ، واتحبه ليظهر فى قمة الأحياء .

كان قد اصاف جرحا فى جبهته ، واصابة جديدة فى ثراعه ،
الا ان هذا لم يمنعه من ان يتحرك بسرعة البرق

كالمعتاد ..

وعلى الرغم من ان الاسرائيليين كانوا متحفزين بتفجر ، الا ان
رصاصاته قد حصدت الثلاثة ، الذين اعتلوا جسم الدبابة ، فى
اللحظة الاولى ، ثم دار بجسده دورة شديدة العروية ، دون ان
ينفض من مكانه ، واطلق النار على اولئك الذين اتوا من خلفه



وعلى الرغم من ان الاسرائيليين كانوا متحفزين بتفجر ، الا ان رصاصاته قد حصدت الثلاثة ، الذين اعتلوا جسم الدبابة ..

وفي اللحظة نفسها ، أطلق الآخرون نيرانهم

واخترقت رصاصة جانب جدار بطن (أدهم) ، ونفذت من خلال خمس سنتيمترات من الجلد واللحم ، لتفوق في أرضية الممر ..

وغاصت ثانية في كتفه ..

وحماه مدفع الدببة من الرصاصات الأخرى ..

ولم يضع هو جزءاً من الثانية ..

لقد استدار يواجههم ، وأطلق رصاصاته نحوهم ..

ومع سقوط رجال القوات الخاصة الإسرائيليين ، تراجع الجنديان المتبقيان ، وهما يطلقان نيرانهما في عنف ، وراحا يعدوان لمغادرة الممر ، قبل أن يظفر بهما (أدهم) ، كما ظفر زملائهما ..

واتسعت عينا (باراك) في ذهول ، وهو يشاهد الرجولين ، يعدوان خارج الممر ، وهتف عبر اللاسلكي

- ماذا حدث ؟!

أجابه أحدهما ، وهو يلهث في شدة :

- ذلك الضابط المصري داخل الممر شيطان حقيقي . لقد قتل الجميع .

اتسعت عينا (باراك) عن آخرهما ، وهو يهتف :

- ضابط مصري ؟! ماذا تعنيان ؟! هل يقود ضابط مصري واحد العملية كلها ؟!

أجابه الرجل الآخر في عصبية :

- الرجل لا يقود أية عمليات .. إنه العملية نفسها .

سأله (باراك) ، في عصبية أكثر :

- ماذا تقصد بالضبط ؟!

صاح الرجل ، وقد فقد أعصابه :

- أقصد أنه ضابط واحد يا عبقرى (الموساد) .. ضابط صاعقة مصري واحد .. هل فهمت ؟!

احتقن وجه (باراك) بشدة ، وهو يغمغم :

- مستحيل ؟!

فقد كانت المفاجأة مذهلة بحق ..

على كل المقاييس ..

وبالذات المقياس العسكري ..

من المستحيل ، بأي منطق ، أن يفعل ضابط واحد كل هذا ..

مهما بلغت مهاراته ..

ولكن مهلاً ..

القتال كان يدور على جاتبي العمر ، في آن واحد ..

وهذا يعنى أنه من المستحيل أن يكون هناك ضابط واحد

لقد خسر كتيبة الحراسة كلها ، وثمانية وأربعين من أفضل عناصر القوات الخاصة ، وطائرتي هليكوبتر ، دون أن يظفر بالممر ..

وهذا يحتم أن يكون عدد المقاتلين ضخماً ..

ربما لم يتبق منهم سوى ضابط واحد ..

ولكنهم كانوا عشرات حتماً ..

وربما مئات ..

هذا هو المنطق المقبول الوحيد ..

ثم تحول توتره كله إلى غضب شديد ..

غضب هائل ..

عنيف ..

بلا حدود ..

وتفجّر في أعماقه قرار واحد .

أيا كان عدد المصريين في العمر ، فسيعمل على سحقهم سحقاً ..

وبكل توتره وانفعاله ، التقط مسماع اللاسلكى ، وهتف عبره .

- إلى الهليكوبتر رقم ثلاثة .. اهبط إلى مدخل العمر ، واسحق كل من فيه بمدفعك الآلى . هل تفهم ؟! أفعّلها فوراً لا أريد حشرة على قيد الحياة داخل العمر ، مهما بلغ صغرها .. هيا نفذ .

أجابته قائد الهليكوبتر الثالث :

- كما تأمر .

ثم جذب عصا القيادة ، ومال بالهليكوبتر ، وهو يتجه بها نحو العمر ..

وعندما أصبح أمام مدخله بالضبط ، غمغم في صرامة :

- اذهبوا إلى الجحيم أيها المصريون .

ثم ضغط زر الإطلاق ، في قمة عصا القيادة .

وتفجّرت رصاصات الهليكوبتر في كل مكان ..

بلا استثناء .

١٠ - ست ساعات ..

فجأة ، استعاد المقدم (راشد) وعيه ...

وقبل حتى أن يفتح عينيه ، راح يضرب الهواء بذراعيه ،
هاتفاً :

- الإسرائيليون .. امنعوهم .. لا يمكن أن نسمح لهم بالعبور .

التقطت أنباء وقع أقدام تتجه نحوه ، وشعر بأياد تحاول إعادته
إلى فراش ميداني ، وسمع صوتاً يقول :

- اهدأ يا سيادة المقدم . اهدأ .. أنت هنا بين أياد مصرية .

فتح المقدم (راشد) عينيه ، وحدق في وجه الطبيب العسكري ،
وفي الخيمة الطبية التي يرقد داخلها ، قبل أن يهتف :

- أين أنا ؟

أجابه الطبيب :

- أنت هنا في مستشفى ميداني ، على بعد عشرة كيلومترات
من قناة (السويس) ، وسيتم نقلك بالهليكوبتر فوراً إلى
(القاهرة) لتستكمل علاجك في مستشفى المعادي العسكري .

اتصت عينا المقدم (راشد) في ارتياح ، وهو يهتف :

- مستشفى ؟ وماذا أفعل هنا ؟! المفترض أن أكون هناك
الآن ، في مصر (مثلاً) .. نقاتل لمنع الإسرائيليين من عبوره .

هرّ الطبيب رأسه ، قائلاً :

- هذا مستحيل الآن يا سيادة المقدم .. إبتك مصاب بشدة ، ولقد
قتهت الحرب بالنسبة لك عملياً ، وما فعله ضابطك وهذا
الجندي ، كان تصرفاً حكيماً للغاية .

استدار (راشد) إلى حيث يشير الطبيب ، وهتف :

- (صالح) ؟ ماذا تفعل هنا ؟

عض جندي الصاعقة شفتيه ، مجيباً :

- كفض أولمر سيادة الملازم (أدهم صبري) يا سيدي .

هتف (راشد) :

- ليه أولمر ؟

شدّ الجندي قامته ، مجيباً :

- لن أعيد سيادتكم مع زميل مصاب ، وأسير إسرائيلي ، إلى
منطقة نفوذ قواتنا .

صاح (راشد) في غضب :

- وكيف تفعل أمراً كهذا ؟!

أمسك الطبيب كتفيه في قوة وحزم ، وهو يقول :

- اهدأ يا سيادة العقنم .. اهدأ .. ذلك الجندي البطل قطع خطوط العدو ببسالة نادرة ، وجازف بحياته في شهامة رائعة ، لينقذ حياتك ، أو ساقك على أقل تقدير ، ولولا وصوله إلى هنا في الوقت المناسب ، لما كنت قائماً حتى على الاعتراض .

عضء المقدم (راشد) شفتيه بدوره ، وهو يقول :

- ولكنه تركهم وحدهم هناك .. كان ينبغي أن يبقى .. وأن يقاتل .

خفض الجندي عينيه في صمت ، في حين قال الطبيب :

- ما فعله كان أكثر خطورة ، ولست أعتقد أن وجوده هناك كان سيضيف الكثير .

ثم مال نحوه ، متمائلاً :

- فماذا يفعل رجل واحد ، في مواجهة جيش ؟!

نعم أيها الطبيب .. أنت لا تدرك كم جاء سؤالك مناسباً .
لمثل هذه اللحظة بالتحديد ..

فما الذي يمكن أن يفعله رجل واحد ..

في مواجهة جيش ؟!

★ ★ ★

« تذكر يا (أدهم) . كل مخلوق حي ، وكل ما صنعه البشر ، يحوى حتماً نقطة ضعف .. » .

استعاد (أدهم) عبارة والده الراحل ، وهو يحتسى بجسم الدبابة المحطمة ، من رصاصات الهليوكوبتر العنيفة ، التي تغمر العمر كله تقريباً ..

كانت جراحه تتزف على نحو مخيف ، على الرغم من كل ما يحيط بها من ضمادات ، وجسده مرهقاً إلى أقصى حد ..

وذهنه مكبوحاً للغاية ..

ولكن عقله ما زال يعمل بكفاءة ..

ويستعيد كل مهاراته ..

وخبراته ..

ونكرباته أيضاً ..

« ابحث عن نقطة الضعف يا (أدهم) .. مهما بدا خصمك قوياً ، منيعاً ، قاسياً .. ابحث عنها ، وستربح معركتك بإذن الله .. »

العبارة ترددت في ذهنه ، ودوى رصاصات الهليوكوبتر يتواصل بعنف ..

ويخترق بعض أجزاء جسم الدبابة * .

(*) رصاصات مدافع الطائرات صدمة الحجم ، وأكثر قوة بكثير من الرصاصات العادية .

وعلى الرغم من كل هذا ، وكما نرى والده فى طفولته ،
احتفظ بكل هدونه ، وسيطرته على نفسه ، وهو يلتقط مدفعه ،
ويظل برأسه على الهليكوبتر ، من تجويف صغير ، عبر منظار
الرؤية الليلية ..

حتى الهليكوبتر لها نقطة ضعف ..

تلك القطعة التى تنقل الحركة ، من المحرك إلى المروحة
الرئيسية ..

وكابينة القيادة نفسها ..

ووسط الرصاصات والنيران ، صوب (أدهم) مدفعه ..

وحبس أنفاسه ..

ثم ضغط الزناد ..

وانطلقت رصاصته تصيب الهدف ..

بمنتهى الدقة ..

وتمزقت قطعة صغيرة من القائم ، الذى يحمل المروحة ..

وشعر قائد الهليكوبتر بخلل مباح ، فهتف :

- ما الذى ..

وقبل أن يتم عبارته ، أطلق (أدهم) رصاصته الثانية

واخترقت الرصاصة زجاج كابينة القيادة ، لتستقر فى رأس
قائد الهليكوبتر ..

فى منتصف جبهته بالضبط ..

واقسعت عينا الطيار عن آخرهما ..

ومالت الهليكوبتر فى عنف ..

ثم ارتطمت بالأرض ..

ودوى الانفجار ..

انفجار نصف الهليكوبتر نصفاً ، وأطاح بمروحتها ، التى
اندفعت عبر العمر ، فى مشهد رهيب ، جعل (أدهم) يخفض
رأسه فى سرعة ، وسمعها ترتطم بالجدران ، والسقف ، وتتحطم
فى عنف ، ليتناثر حطامها فى كل مكان ، حتى إن قطعة منه قد
ارتطمت بجسم الدبابة ، على مسافة سنتيمترات قليلة من رأسه ..

واشتعلت النيران فى مدخل المعر ..

وفى هليكوبتر القيادة ، صرخ (باراك) :

- مستحيل ! مستحيل أن يفعل كل هذا رجل واحد ! مستحيل !

لولا الطيار أن يعلق على الأمر ، إلا أن غضب (باراك) وثورته
جعلاه يؤثر الصمت ، وهو يراقب تلك الهليكوبتر المحترقة ،
عند مدخل المعر ..

كان من الواضح أن المصريين قد تطوروا كثيرا هذه المرة .
سواء أكان من يحمي العمر رجلاً ، أم فريقاً كاملاً ..
إنهم يقاتلون ببسالة مدهشة ، منذ الواحدة والنصف ظهراً ،
وحتى الثانية والرابع صباحاً ..

وبلا توقف ..

ويكفى أنهم قد سيطروا تماماً على العمر ..

وأبادوا فرقة كاملة من القوات الخاصة ..

أفضل جنود في إسرائيل كلها ..

وسحقوا ثلاث طائرات هليكوبتر مقاتلة ..

ماذا يكون التفوق ، لو أنه ليس كذلك ؟!

والأسوأ من هذا ، هو أنهم قد هزموا (باراك عمتاي) نفسه .

ضابط (الموساد) المتعجرف المغرور ، الذي يتصور نفسه
دوماً أفضل وأذكى ، وأبرع رجل مخابرات عرفه التاريخ .

وها هي ذى الهزيمة تحفر ملامحها ، على وجهه وصوته ،
وهو يهتف عبر اللاسلكي :

- استعدوا لموجة هجوم أخرى .

أجابه قائد الهليكوبتر المتبقية في عصبية .

- أية موجة هجوم أيها الضابط ؟ لقد فقدنا الكل تقريباً ،
ولم يعد لدينا سوى رجلين ، أحدهما يحتاج إلى إسعاف ، وهذه
الهليكوبتر ، والهليكوبتر التي تحملك فحسب .

ثم ارتفع صوته في غضب ، وهو يهتف :

- هيا .. اعترف يا ضابط (الموساد) .. لقد خسرت حرك
الخاصة .. خسرتها بأي مقياس .

احتقن وجه (باراك) ، وهو يهتف :

- (باراك عمتاي) لم يخسر معركة قط .

أجابه قائد الهليكوبتر في حدة :

- ضع هذه على أول القائمة إذن .

صاح به (باراك) :

- اسمع يا رجل .. إبنى ..

قاطعته في غضب :

- إنك ستكمل حرك وحدك يا ضابط (الموساد)

تراجع (باراك) في مقعده ، وهو يهتف في حلق :

- ماذا تعنى أيها المأفون ؟

أجابه فى صرامة :

- سأحمل الجنديين ، وأعود إلى القاعدة ، فى قنطار أوامر من القيادة .

صرخ (باراك) :

- لا يمكنك أن تفعل هذا .

أجابه الرجل ، وهو يرتفع بالهنيوكوبتر بالفعل :

- هاكمنى إذن .

ثم انطلق عائداً إلى القاعدة ، فصرخ (باراك) بكل الغضب :

- لا يمكنك أن تفعلها .. لا يمكنك هذا .

ولكن الرجل تجاهله تماماً ، وهو يبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..

وفى توتر بلا حدود ، غمغم طيار الهنيوكوبتر :

- الواقع أنه ..

قاطعه (باراك) فى غضب :

- هل ستتبعهم ؟!

قال الطيار فى عصبية :

- وماذا يمكن أن نفعل وحدنا هنا ؟!

اختطف (باراك) مسماع اللاسلكى مرة أخرى ، وهو يجيب فى حدة :

- نطالب بإمدادات .

ثم هتف عبر الجهاز :

- هنا (باراك عمتاى) .. من ممر (مثلاً) . إننا نواجه مقاومة عنيفة وشراسة من المصريين .. نريد إمدادات عاجلة .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يأتیه صوت صارم ، يقول :

- ماذا تفعل عندك يا (عمتاى) .. لا توجد هنا أية معلومات ، عن صلاوات قتالية فى الممر ..

أجابه (باراك) فى صرامة :

- لقد بدأنا الاشتباك مع العدو ، قبل حتى أن يدرك أحدكم أن المصريين هنا ..

قال الرجل فى غلظة :

- ما زلت لا أجد لدى أية معلومات كافية

هتف (باراك) :

- اتصل بالجنرال (زورسكى) (دان زورسكى) ، وستجد لديه كل المعلومات .. أسرع يا رجل . كن دقيقة لها ثمنها ..

قال الرجل بنفس الغلظة :

- انتظر إذن .

طال الصمت هذه المرة ، فغمغم الطيار فى عصبية :

- إتينا نعمل على نحو غير رسمى ، وفى الحروب تعتبر هذه خيانة تستوجب المحاكمة ، وربما الإعدام رميا بالرصاص أيضا .

صاح به (باراك) :

- هذا لو فشلت .

ثم عادت عيناه تتألقان فى وحشية ، وهو يضيف :

- أما لو ربحت ، فستعتبر بطولة ، تستوجب الترقية والمكافأة .

تردد الطيار ، وتضاعف القلق فى أعماقه ، وهو يتعاضل :
ألا يبدو ما حدث أقرب إلى الفضل ؟!

لم يكد سؤاله ينثب إلى عقله ، حتى انبعث صوت الرجل ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول :

- هناك خطة افتتاح للممر بالفعل . القوات مستصلة فى الخامسة والنصف تقريبا ، وسيكون هجوما شاملا ، يستحيل أن تغفل منه نبأة واحدة .

التقط (باراك) نفسا عميقا ، وقال :

- عظيم . سننتظر

قالها ، وأنهى الاتصال ، وهو يستعيد عبارات الرجل الأخيرة هجوم شامل ..

يستحيل أن تغفل منه نبأة واحدة ..

وتألفت عيناه مرة أخرى ..

وتسللت إلى شفتيه ابتسامة ..

ابتسامة شيطانية ..

* * *

ارتسمت ابتسامة لرتياح وثقة . على شفتى وزير الحربية ، على الرغم من الإرهاق الواضح فى ملامحه وصوته ، وهو يقول للرئيس (السادات) :

- خمس وثمانون فى المائة ، من النقاط الحصينة لخط (بارليف) ، صارت فى قبضت يا سيادة الرئيس ، وطبقا لتقديرات الخبراء ، سنمتلك السيطرة الكاملة ، خلال ست ساعات فحسب .

تنهد الرئيس ، وبعث دخن غليونه مرة أخرى ، مغمفما :

- حمداً لله .. حمداً لله .

ثم أضاف في ارتياح :

- إذن فكل ما نحتاج إليه هو ست ساعات .

أجابه الوزير :

- لو تمكنا من منع مرور الإمدادات الإسرائيلية عبر الممرات ،
حتى نهاية هذه الساعات الست ، سنمتلك السيطرة الكاملة على
ساحة القتال بإذن الله .

غمغم الرئيس :

- عظيم .. عظيم ..

ثم التفت إلى قائد الصاعقة ، وسأله :

- ما الموقف عند الممرات ؟

أجابه الرجل في سرعة :

- رجالنا يسيطرون عليها تماماً بإسيادة الرئيس ، ولكننا
نتوقع هجوماً إسرائيلياً شاملاً وعنيفاً ، في محاولة لاستعادة
السيطرة على الممرات ، خلال ساعة على الأكثر من الآن .

تطلع الرئيس إلى ساعته ، التي أشارت عقاربها إلى الثالثة
وسبع وثلاثين دقيقة ، وهو يغمغم في قلق :

- ساعة واحدة .. هذا يعني أن الأولاد مضطرون للصمود
لخمس ساعات على الأقل ، في وجه هجوم شامل عنيف .

ارتفع صوت يقول :

- خمس ساعات ونصف الساعة يا سيادة الرئيس .

التفت الكل إلى مدير المخابرات ، الذي تابع في توتر :

- أحد عملائنا ، في قلب القيادة الإسرائيلية ، أبلغنا أن الهجوم
الإسرائيلي الشامل ، على كل الممرات ، سيبدأ في تمام الخامسة
والنصف ، وأن الإسرائيليين قد حشدوا له كل قوتهم ، وأرسلوا
إمداداتهم و فرق دباباتهم ومدافعهم بالفعل ، لعبور الممرات ،
فور استعادة السيطرة عليها .

اتعبد حاجبا الرئيس في شدة ، ونفث دخان غليونه في
عصبية ، وهو يقول :

- موقف خطير للغاية يا سيادة .

أجابه قائد الصاعقة ، في قلق حقيقي :

- الأكثر خطورة هو أنه لم يعد لدينا سوى ضابط واحد ، في
ممر (متلا) يا سيادة الرئيس .

سقط الغليون المشتعل ، من بين شفتي الرئيس ، وهو يهتف .

- رباه ! ضابط واحد !؟ وحرب شاملة عنيفة من الجانب
الإسرائيلي .. رحماك يا رب العالمين .

قال مدير المخابرات :

- الإسرائيليون يدركون الموقف عند معر (متلا) ، وسيسعون لاستغلال هذا إلى أقصى حد .

ردّد الرئيس في توتر لا محدود :

- ضابط واحد ؟ يا إلهي ! ضابط واحد ؟!

قال قائد الصاعقة :

- المشكلة الأكبر أن الرسالة اللاسلكية ، التي أبلغنا بها هذا ، كانت آخر ما أمكن لبطارية اللاسلكي بثّه ، بعد إصابتها خلال المواجهة الأخيرة ، وهذا يعنى أنه قد صار وحيداً معزولاً ، في قلب المعر ، وعليه أن يدير العملية كلها وحده

ردّد الرئيس في استنكار :

- في مواجهة هجوم إسرائيلي شامل وعنيف ؟

هزّ مدير المخابرات كتفيه ، مغفماً في حذر :

- من يدري ؟! لله في خلقه شئون .

تهدّ الرئيس ، متممّاً ، وهو يستعيد غيونه ، ويشعنه ثتية :

- ونعم بالله .

ونفث الدخان مرتين أو ثلاثاً ، قبل أن يميّز إلى الامام .

قائلاً في حزم واضح :

- فنيكن يا رجال . لقد خضنا الحرب ، ولم يعد التراجع ولزداً أو ممكناً . سنمضي في خطتنا الرئيسية ، وسنفترض أن الإمدادات الإسرائيلية ستصل قبل الموعد الذي نريده ، وهناك خطة بديلة ، معدة لمواجهة مثل هذا الموقف . فلنمض في عملنا على بركة الله .

تردّد قائد الصاعقة ، قبل أن يسأل :

- وماذا في عملية الاستعادة ، التي أمرت بها يا سيادة الرئيس ؟! هل تعتقد أن ..

قاطع الرئيس في حزم :

- نعم .. كل شيء سيستمر على ما هو عليه .

قالها ، وهو يتصاعل في أعماقه : لماذا يصمّ على المضي في العملية الانتحارية ، لاستعادة رجل ، لا يفترض قط أن يظلّ على قيد الحياة ، بعد مواجهة كهذه ؟!

لماذا ؟!

لم يكن هناك جواب شاف أو منطقي ، ولكن شيئاً ما في أعماقه ، كان يصر على أن الأمور ستسير كما كان يتوقع

شيء لا يمكن تحديده ..

أبداً ..

* * *

لم تكذ عقارب الساعة تعلن تمام الخامسة والنصف صباحاً ،
حتى بدأ الهجوم الإسرائيلي الشامل دفعة واحدة ..

سبع طائرات هليكوبتر مقاتلة ..

خمس عربات مدرعة ..

مائة وعشرون من أفضل جنود القوات الخاصة ..

كل هؤلاء انقضوا على الممر من مدخله ، في لحظة واحدة ..

ومع الأضواء الكاشفة القوية ، بدأ كل شيء واضحاً للأعين .

عشرات الجثث والأشلاء ..

بماء تغرق كل شيء ..

حطام متناثر بطول الممر ..

وقتل من رجال الصاعقة المصريين ، لا يتجاوز عددهم أصابع

اليد الواحدة ..

واندفع جنود القوات الخاصة إلى الممر ..

من الشرق والغرب ..

وانتشروا في الممر ..

في كل شهر منه ..

ولكنهم لم يغثوا على مخلوق واحد ..

على قيد الحياة ..

أى مخلوق ..

وفي توتر بالغ ، قال ضابطهم لقائده ، الذى ينتظر خارج
الممر ، عبر جهاز اتصال محدود :

- لا يوجد أحياء هنا .. مصريون أو إسرائيليون .. الممر خال

تماماً .. وهنا أربع أو خمس جثث للمصريين فحسب .

انفقد حاجبا قائده فى شدة ، وهو يقول :

- راجعوا الأمر مرة أخرى ، وأبلغنى النتائج

ثم التفت إلى (باراك) ، قائلاً فى حدة :

- أهذه هى حربك الخاصة ، التى تنهاهى بها يا ضابط

(الموساد) ؟! خمس جثث!؟ هل فقت فرقة قوات خاصة وثلاث

طائرات هليكوبتر ، فى مواجهة خمسة من المصريين فحسب .

هتف (باراك) فى عصبية :

- إنهم هنا .. المصريون هنا .. لا تجعل هذا يخدعك . إنهم

يختبئون فى مكان ما ، حتى يمكنهم أن ...

قاطعه القائد فى غضب صارم :

- كفى .

احتقن وجه (باراك) فى شدة ، فتابع الرجل فى غضب شديد :

- ربما تتصور أن مبادرتك بطولة ، تستحق عنها المكافأة ،

ولكن الواقع ليس كذلك يا (عمّاي) ، فمعى هنا أمر مباشر ،

من وزير الدفاع شخصياً ، بإعادتك إلى (تل أبيب) فوراً ،

لمحاكمتك عسكرياً .

اتسعت عينا (باراك) ، وهو يهتف :

- محاكمة ؟! بعد كل ما فعلته .

أجابه القائد في صرامة شديدة :

- هذا ما تستحقه يا ضابط (الموساد) .

صاح (باراك) :

- بل هذا ما تحاولون به إخفاء فشلكم وهزيمتكم أمام المصريين

يا رجال الجيش .. كبش فداء ، يتحمل المسئولية كلها بدلاً منكم .

اتعقد حاجبا القائد في شدة ، وصرخ :

- (موشى) .

هرع إليه أحد ضباطه ، وأدى التحية في قوة ، فأشار إلى

(باراك) ، قائلاً في لهجة أمرة ، صارمة ، غاضبة :

- خذ هذا الرجل ، مع الهليوكوبتر التى أتى بها ، وأعهده إلى

(تل أبيب) فوراً .

هتف (باراك) في عصبية :

- إتنى أرفض الذهاب .

تجاهله القائد تماماً ، وهو يقول للضابط (موشى) :

- وإذا ما أبدى شيئاً من المقاومة ، أطلق النار على رأسه

فوراً .

امتقع وجه (باراك) ، والقائد يضيف في صرامة شامخة :

- كما تقول أوامر القيادة .

استلّ الضابط مسدسه على الفور ، وصوبه إلى (باراك) ،

الذى تضاعف امتقاع وجهه ، وهو يتمم :

- خطأ .. إنكم ترتكبون أكبر خطأ .

تجاهله القائد مرة أخرى ، وهو يقول في صرامة :

- هيا .. لذهب به .

دفع الضابط (موشى) (باراك) أمامه في خشونة ، نحو

الهليوكوبتر ، حيث استقبلهما الطيار بابتسامة باهتة ، وهو

يقول متوتراً :

- كنت لطيف الأوامر فحسب .

ولما لم يتلق جواباً ، أدار محركات الهليوكوبتر ، وارتفع بها ،

لينطلق نحو (تل أبيب) مباشرة .

أما القائد ، فقد هتف برجائه داخل الممر ، عبر جهاز الاتصال

للاملكى المحدود .

- هل عثرتم على أى أحياء ؟!

أجابه ضابطه ، من داخل الممر :

- مطلقاً يا سيدي .

اتخذ حاجبا القائد ، ومط شفتيه ، متمتما :

- يا للسخافة !

مال ضابطه الأول نحوه ، وقال :

- معذرة يا سيدى ، ولكن يبدو أن رجل (الموساد) قد قام بعمل جيد هنا ، فها هو ذا الممر تحت سيطرتنا تماما ، فى حين يعانى الزملاء مقاومة شرسة عنيفة من المصريين ، عند المعبرين الآخرين .

غمغم القائد :

- ربما كان هذا صحيحا .

ثم أضاف فى شراسة :

- ولكن إعدام ذلك الضابط المغرور سيمعذنى حتما .

والتقط نفسا عميقا ، قبل أن يتابع :

- لست أعتقد أننا بحاجة إلى طائرات الهليكوبتر هنا ، بعد أن استعدنا سيطرتنا التامة على الممر .. أبلغ القيادة بهذا ، وأبلغهم أنهم يستطيعون إرسال كل الإمدادات إلى هنا ، ويمكنهم إرسال طائرات الهليكوبتر إلى الممر الآخر . هيا .

ترد ضابطه الأول لحظة ، قبل أن يقول فى حذر :

- ولكن ألا يحتمل أن يكون ضابط (الموساد) على حق .

وأن يكون المصريون مختبئين فى مكان ما ؟!

لبتسم القائد ، قائلا :

- أى مكان يا رجل ؟! إنها ليست غابة متشابكة الأغصان كثيفة الأشجار . إنه ممر واحد ، ولقد استعدناه .

ثم ربت على كتفه ، قائلا :

- هيا يا رجل .. أبلغ القيادة .

انطلق الضابط الأول لتنفيذ الأمر ، فى حين شد القائد قامته ، والتقط نفسا عميقا من هواء ليل (سيناء) ، وكله ثقة فى أنه قد استعاد السيطرة الكاملة على الممر ، بعد أنلقى كل المصريين فيه مصرعهم ..

ولكن هذا كان يطرح علامة استفهام ضخمة .

فلقد اقتحم الإسرائيليون الممر بالفعل ..

وسيطروا عليه تماما ..

ولم يجدوا فيه مصريا واحدا ، على قيد الحياة ..

فأين ذهب (آدم صبرى) إذن ؟!

أين ؟!

١١ - عزف منفرد ..

هز (قدرى) رأسه فى قوة ، محاولاً نفض تلك الرغبة العارمة فى النوم عن عينيه ، وهو يعتدل فى مقعده ، ويرتشف قدح الشاي الساخن ، متسانلاً فى حيرة كبيرة :

- هذا صحيح .. أين ذهب (أدهم) يومئذ ؟

ابتسم مدير المخابرات ، وهو يجيب :

- لم يذهب إلى أى مكان ..

تضاعفت حيرة (قدرى) ودهشته ، وهو يتساءل :

- ماذا تعنى يا سيدى ؟! لقد فتش الإسرائيليون الممر كله ..

أليس كذلك ؟!

أوما المدير برأسه ، مغفماً :

- بلى .

قلب (قدرى) كفه ، هاتفاً :

- أين كان إذن ؟!

صمت المدير مرة أخرى ، وشردت عيناه فى الحجرة ، كعادته

كلما استعاد ذكريات قديمة ، ثم لم يلبث أن قال فى عمتى ،

وكأنما يعيد مشاعره القديمة إلى أعماقه :

- والده (رحمه الله) ، كان قد علمه حكمة تؤمن بها جميعاً .. إذا أردت أن تخفى شيئاً ما ، بحيث لا ينتبه إليه الباحث قط ، فضعه فى مكان أكثر وضوحاً مما يمكن تخيله وابتسم ، ليضيف :

- وهذا ما فعله (أدهم) .

حذق (قدرى) فيه لحظة ، ثم هز رأسه ، واعتدل فى مقعده ، قائلاً :

- أعتقد أننى لم أستوعب الأمر بعد .

ثم سأل بكل حيرته وتوتره :

- أين اختفى (أدهم) من الإسرائيليين بالضبط ؟!

نظّل إليه المدير ، مجيباً :

- لن يمكنك أن تتصور أبداً .

وعندما واصل رواية قصته هذه المرة ، كان للأحداث طعم مختلف .

بالتأكيد .

« الإسرائيليون استعادوا السيطرة على ممر (متلا)
يا سيادة الرئيس .. »

نطق وزير الحربية العبارة في أسف شديد ، فحدق الرئيس في وجهه لحظة ، وهو يجلس على مقعده ، وساعة الجدار الكبيرة خلفه تشير إلى السادسة وسبع دقائق ، من صباح السابع من أكتوبر ، ثم لم يلبث أن غمغم :

- قدر الله وما شاء فعل .. قدر الله وما شاء فعل .

ولثوان ، لاذ بالصمت القام ، قبل أن يقول :

- أظن أنه لم يعد هناك مفر من اللجوء للخطة الاحتياطية .

أجابته الوزير في قلبي :

- ولكن هذا سيرفع الخسائر بنسبة ثلاثين في المائة يا سيادة الرئيس .

تنهّد الرئيس في أسى ، وقال وهو يقلب كفيه :

- وماذا ببدنا لنفعله ؟!

غمغم قائد الصاعقة في مرارة :

- الرجال ما زالوا صامدين عند العمر الآخر

قال مدير المخابرات الحربية في أسف :

- ولكن الإسرائيليين سيستغلون هذه الثغرة حتماً ، وستندفق عبرها إمداداتهم بلا حدود ، مع غطاء جوي مدروس ومكثف

تنهّد الرئيس مرة أخرى ، وهو يقول :

- يا للخسارة !

ران على الرجال صمت أسف ، حمل الكثير من مرارتهم وفلقهم ، و ...

وفجأة ، اندفع أحد الضباط نحو قائد الصاعقة ، وهو يحمل ورقة ، يلوح بها ، قائلاً :

- اتصال لاسلكي يا سيدي .. من منطقة ممر (مثلاً) .

التفت إليه الجميع في لهفة شديدة ، واختطف قائد الصاعقة الورقة ، وقرأ ما عليها بصوت مرتفع :

- الفلكهة طارئة .. توقع م. ا. ص.

ثم هتف في حماس شديد :

- حمداً لله .. حمداً لله .

سأله الرئيس في لهفة وانفعال :

- ما معنى هذه الرسالة بالضبط ؟!

أجابته قائد الصاعقة في حماس :

- إنها رسالة شفرية ، من ضابطنا عند ممر (مثلاً) .

سأله وزير الدفاع في قلبي :

- وما الذي تعنيه ؟!

أجابه قائد الصاعقة بابتسامة كبيرة :

- تعنى أن الممر ما زال تحت السيطرة .

اتسعت عيون كل القادة ، فى تبهار شديد ، وهتف أحدهم :

- تحت السيطرة ؟! كيف ؟! لقد افتحمه الإسرائيليون بالفعل .

قال قائد الصاعقة فى حزم :

- ولكن إمداداتهم لم تعبره بعد .

سأله وزير الحربية :

- ماذا تعنى ؟!

أجاب فى حماس واثق :

- أعنى أنه ما دام ضابطنا يؤكد أن الأمر ما زال تحت السيطرة .

فهذا يعنى أن لديه خطة ما .

هتف أحد القادة مستكراً :

- هل تعتقد أن ضابطاً واحداً يمكنه أن يتصدى لكل هذا ؟!

قال قائد الصاعقة فى صرامة :

- الملازم (أدهم صبرى) ليس مجرد ضابط صاعقة عادى .

إنه ..

قاطع مدير المخابرات العامة فى دهشة :

- (أدهم صبرى) ؟! هل قلت : الملازم (أدهم صبرى) ؟!

التفت إليه رئيس الجمهورية ، متسائلاً :

- (أدهم صبرى) . أهو ذلك الشاب ، الذى استعنا به قبيل

الحرب ، لإحضار خريطة أنابيب النائم ؟! * .

هتف مدير المخابرات العامة :

- هو بنفسه يا سيادة الرئيس .

اتسعت عيون القادة فى دهشة ، مع ذلك الارتياح الغامر ،

الذى كما وجه الرئيس ، وهو يتمتم :

- عظيم .. عظيم ..

تصاعل قائد الدفاع الجوى فى حيرة :

- هل تعتقد يا سيادة الرئيس ، أنه ..

قاطع الرئيس فى حزم :

- بالتأكيد . ألم تسمع ما قاله قائد الصاعقة ؟! (أدهم

صبرى) هذا ليس مجرد ضابط مخابرات صاعقة عادى

(*) راجع قصة : (خيط الذهب) .. المغامرة رقم ٢٢

ثم تطلع إلى مدير المخابرات العامة ، وهو يتابع :

- إنه ابن زميلنا (صبرى) (رحمه الله) .

واتسعت ابتسامته فى ثقة عجيبة ، وهو يستدير إلى وزير
الحربية ، قائلاً :

- سنعرض فى الخطة الرئيسية ، كما كان مقرراً من قبل .

هتف قائد البحرية :

- ولكنه رجل واحد يا سيادة الرئيس !

وابتسم الرئيس :

- ابتسم دون أن يجيب ..

ولكنه فى أعماقه ، كان يشعر بثقة عجيبة ..

ثقة فى النصر ..

وفى الله (سبحانه وتعالى) ..

منتهى الثقة ..

احتقن وجه (باراك) فى شدة ، وهو يجلس داخل

الهليكوبتر ، التى تحمله إلى (تل أبيب) ، والضابط (موسى)

صامت صارم إلى جواره ، يراقب الطريق بعين صقر ..

وفى توتر ، غمغم الطيار :

- عشر دقائق ، ونصل إلى (تل أبيب) .

قال الضابط (موسى) فى صرامة :

- كان يمكن أن أبلغها قبل هذا بكثير ، لولا ذلك التوقف

المخيف ، فى منتصف الطريق .

زمر (باراك) ، قائلاً :

- كان ينبغي أن أحضر أى دليل لتبرنتى ..

هتف الضابط فى تعال :

- هراء .. حتى ولو أحضرت كل أدلة الدنيا ، لن تكون هناك

فائدة .

ثم مال نحوه ، مستطرداً فى شماته :

- القيادة اتخذت قرارها بإعدامك .. هل تفهم ؟ إنه قرار

مسيق .. نفس نظرية كبش الفداء ، التى تتحدث عنها .

رمقه (باراك) بنظرة نارية طويلة ، قبل أن يقول فى بظء :

- هل تريد أن تقول : إنه ليس هناك أمل فى نجاتى من هذا

الموقف المخيف ..

ترجع الضابط (موسى) . وهو يقول فى شماته واضحة

مستفزة :

- لا يوجد أدنى أمل

صمت (باراك) يضع لحظات اخرى ، ثم قال في صرامة شديدة :

- لا يوجد فارق إذن .

لم يكذب يتم عبارته ، حتى تحرك بسرعة مذهشة ، تنبثق بضابط في (الموساد) ، فانتزع المسدس من حزام الضابط ، ثم دفعه بكل قوته خارج الطائرة .

واتسعت عينا الضابط (موشى) في ارتياح ، وراح يضرب نراعيه في الهواء ، محاولاً التشبث بأى شيء ، ولكن (باراك) لكمه في أنفه بكل قوته ، وهو يقول في شراسة :

- اذهب .

ارتفعت صرخة الضابط الإسرائيلي ، حاملة كل رعب الدنيا ، وهو يهوى من حائق ، في حين صرخ الطيار في رعب .

- ماذا فعلت يا أدون (باراك) ؟ يا إلهي ! ماذا فعلت ؟ !

الصق (باراك) فوهة المسدس ، بمؤخرة رأس الطيار ، وهو يقول في سخرية عصبية :

- لخلص العالم من كل الأغبياء

ثم ضغط زناد المسدس ، مضيقاً في وحشية

- أمثالك .



لم يكذب يتم عبارته ، حتى تحرك بسرعة مذهشة ، تنبثق بضابط في (الموساد) ، فانتزع المسدس من حزام الضابط ، ثم دفعه بكل قوته خارج الطائرة ..

نسفت الرصاصه رأس الطيار، وتطاير مخه ليلتصق بالزجاج
الأمامي للهليوكوبتر، وهو يسقط فوق عصا القيادة، على نحو
جعل الطائرة تميل إلى أسفل على نحو مخيف، فجذبه (باراك)
في سرعة، وألقاه جانباً، ثم قفز إلى مقعد القيادة، وجذب
العصا لتستعيد الهليوكوبتر توازنها، قبل أن يدور بها، لينطلق
في اتجاه الغرب، وقد تألقت عيناه بشدة، وحملتاً بريقاً عجبياً،
وهو يقول في شراسة:

- هيا يا (باراك) .. ما دام كل شيء قد ضاع وانتهى، فلتكمل
حربك الخاصة .. المصريون مازالوا هناك، وعليك أن تثبت
هذا .. بأية وسيلة ممكنة.

قالها، وانطلق بالهليوكوبتر، عائداً إلى الممر، وعيناه
تتوهجان كالنيران ..
نيران الجحيم ..

التقط القائد الإسرائيلي أنفاسه في ارتياح، وهو يتطلع إلى
كتيبة الدبابات، التي بلغت الممر، في تمام الساعة، وراح
يلوح بيده لقائدها، وهو يقول في حزم:

- هيا يا رجال .. هيا .. لقد تأخرتم عن الجدول ساعة كاملة ..
لا بد أن تعبروا إلى الغرب بمرعة، فالرفاق على خط المواجهة
في أشد الاحتياج إليكم.

سأله ضابطه الأول في اهتمام:

- هل وصلت أية أخبار جديدة من الجبهة؟!

تلاشى ارتياح القائد، فور سماعه السؤال، وأوما برأسه في
ضيق واضح، فسأله ضابطه الأول في قلق:

- ماذا يحدث هناك؟!

هز القائد رأسه، عجيباً:

- الموقف أسوأ من كل ما يمكنك تصوّره .. المصريون
يجتاحون فرقنا كالوحوش، والرجال على الجبهة يقولون: إنهم
يقاتلون، وكأنما لا يحملون في قلوبهم أدنى رهبة أو مخافة من
الموت .. أو كأنهم يحرصون عليه، إنهم يواجهون الدبابات
والمدرعات بصدور عارية، ويهاجمونها وكأنهم أقوى منها ..
بل لقد أقسم طاقم إحدى الدبابات على أنه كان يطلق عليهم
الفلر، وكلما سقط أحدهم، هب عشرة آخرون للهجوم، حتى
لقد أصابه الرعب، وهو الذي يجلس داخل دبابة، فبارر
بالفرار من أمام وجوههم^(*).

(*) واقعة حقيقية، جاء ذكرها في كتاب (النقصير) الذي صدر في
(إسرائيل) عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣م

امتقع وجه الضابط الأول ، وهو يغمغم :

- إلى هذا الحد ؟!

أوما القائد برأسه إيجاباً ، وهو يزفر في مرارة ، ثم قال :

- من حسن حظنا أن استعدنا السيطرة على هذا المعمر بسرعة ،
فكتيبة الدبابات التي تراها أمامك ، هي الأمل الوحيد لنا ، في
استعادة التوازن على الجبهة ؛ إذ إن الرجال هناك يؤكدون أنه
ما لم يتلقوا معونة أو إمدادات ، خلال الساعتين القادمتين على
الأكثر ، فلن يكون أمامهم مفر من الاستسلام ، والقتال يدور
بمنتهى العنف ، في المعمر الآخر ، ولم تتمكن قواتنا من استعادة
السيطرة عليه بعد .

هزّ الضابط الأول رأسه ، متمتعاً .

- يا له من موقف !

وتابع ببصره كتيبة الدبابات ، التي تقترب من المعمر ، وتستعد
لدخوله ، ثم لم يلبث أن قال في توتر :

- هناك أمر عجيب ، بشأن حطام الدبابة في الداخل

هتف به القائد في عصبية :

- ألم تنتهوا من إراحته بعد ؟!

أجابه في توتر :

- الرجال يبنون قصارى جهدهم ، لنقله إلى تجويف متسع ،
في منتصف المعمر ، فهذا المعمر - كما تعلم - لا يتسع لمروور أكثر
من دبابة واحدة ، ولقد عبرت ثلاث سيارات جيب بصعوبة ،
وهناك عربة مدرعة ، تبعد الحطام ، منذ ما يقرب من الساعة .

قال القائد في عصبية :

- لا بد أن يتم إفساح الطريق على الفور ، فطابور الدبابات هذا
سيعبر المعمر الآن .. هل تفهم ؟!

ألقى الضابط الأول نظرة عبر المعمر ، قبل أن يجيب :

- أعتقد أن بإمكانه العبور الآن .

قال القائد في صرامة :

- هذا أفضل ، فالقيادة لن تغفر قط إضاعة لحظة واحدة ،
في مثل هذه الظروف ، فكل دقيقة تمضي ، من الآن فصاعداً ،
دون أن تصل الإمدادات إلى الجبهة ، ستعني تضاعف فرصة
لانتصار المصريين ، وهزيمة جيشنا الأسطوري

رمقه الضابط الأول بنظرة جانبية ، وغمغم :

- اه جيشنا الأسطوري . بالتأكيد يا سيدى بالتأكيد

كانت دبابة القيادة ، في طابور الدبابات ، قد بلغت مدخل
المعمر الشرقي ، وبدأت تعبره بالفعل . وهو يكرر :

- هناك أمر غير مفهوم ، بشأن تلك الدبابة المحطمة .

سأله قائده في ضجر :

- وما هو ؟

هز الضابط الأول كتفيه ، وقال :

- إنها خالية من الذخيرة تماماً .

مطَّ القائد شفطيه ، وقال :

- وماذا في هذا ؟ لقد دار قتال بينهم وبين المصريين ..

ليس كذلك ؟

أجاب الضابط الأول في توتر ، وهو يتابع كتيبة الدبابات ،

التي تعبر للممر ، واحدة بعد الأخرى :

- بلى ، ولكن حتى هذا لا يبرر اختفاء الذخيرة بأكملها ، فذلك

الذخيرة تحوى مجموعة من القذائف المضادة للدبابات ، وأخرى

ذات قوة تدميرية رهيبة ، ولا يوجد بالداخل أثر واضح : لاستخدام

كل هذه القوة .

اتعقد حاجبا القائد ، وهو يلتفت لوسائله :

- أين ذهبت إذن ؟

هز الضابط الأول كتفيه مرة أخرى ، وهو يغمغم :

- هذا هو السؤال .

في نفس اللحظة ، التي نطق فيها عبارته ، كانت الدبابات

الإسرائيلية تعبر ممر (متلاً) ، في طابور متصل ، واحدة بعد

الأخرى ، وجنود القوات الخاصة يتابعونها في اهتمام ..

- ثم انفصل أحد الجنود عن رفاقه ، وراح يسير في هدوء ،

نحو المخرج الغربى للممر ، إلا أنه لم يلبث أن توقف ، قبل أن

يبلغه بثلاثة أمتار ، وراح يعث في شئ ما بين الصحور ، فهتف

به أحد الجنود الخمسة ، الذى يتولون مهمة تأمين المخرج :

- ماذا تفعل عندك يا هذا ؟

أجاب الجندى بالعبرية ، دون أن يلتفت إليه :

- إننى أتيقن من دقة التوقيت فحسب .

سأله في دهشة :

- أى توقيت ؟

اعتدل الجندى ، والتفت إليه في هدوء ، قائلاً :

- ستدرك هذا بعد قليل .

اتعقد حاجبا الإسرائيلى ، وهو يرمقه بنظرة عصبية ، قبل أن

يشير إليه فى صرامة ، قائلاً :

- اقرب .

اتجه إليه الجندي بهدوء شديد ، قُتِطِعَ إلى ملامحه بشك كبير ، وسأله :

- هل تنتمي إلى فرقنا ؟!

أشار الجندي إلى علامة على صدره ، مجيباً :

- بل أنتمى إلى الفرقة السابعة ، كما يقول هذا التعريف .. هل تجيد القراءة .

ألقي الرجل نظرة على العلامة ، ثم رفع مدفعه في حذر ، قائلاً :

- وكيف أتيت إلى هنا ؟

ثم انتبه فجأة إلى بقعة أخرى ، بالقرب من موضع المعدة ، فهتف :

- وما هذا بالضبط ؟!

ألقي الجندي نظرة على البقعة ، ثم أدار عينيه إلى الممر ، الذي كادت دبابه القيادة تبلغ نهايته ، قبل أن يجيب في هدوء :

- أظنها بقعة دماء .

تراجع الإسرائيلي خطوة ، وهو يهتف بدهشة عصبية :

- دماء .

لم تكد الكلمة تتجاوز شفثيه ، حتى انقضت عليه ذلك الجندي فجأة ، وهو يقول في سخرية :

- دماء وغد مثلك .

وانقضت قبضته ، تسحق أنف جندي القوات الإسرائيلية ، ثم ارتفعت فوهة مدفعه ، تواجه المدافع الآلية الأربعة ، التي رفعها الآخرون تحو ..

وفي لحظة واحدة ، انطلقت الرصاصات ..

كل الرصاصات ..

رصاصات مدافع جنود القوات الإسرائيلية الخاصة الأربعة .

ورصاصات مدفع (أدهم) ، الذي ينتحل شخصية أحدهم .

كانت هذه أفضل وسيلة ، يمكن اللجوء إليها ، لتجاوز تلك المحنة .

فلقد اتبع قاعدة قديمة ، تقول : « إن لم تستطع محاربتهم ، فانتضم إليهم » ..

ولكنه اتبعها بأسلوبه الخاص ..

كان يعلم أنه من المستحيل أن يواجه هجوماً إسرائيلياً شاملاً بمفرده ..

وأن مصرعه سيغنى فشل العملية ..

وانقلاب موثرين القوى ..

لذا ، فقد كان من المحتم أن يجد وسيلة ، غير مباشرة .

وسيلة للبقاء ..

ولتنفيذ العملية ..

عملية (عنق الزجاجاة) ..

وطوال الوقت الذى قضاه بمفرده ، بعد رحيل الهليوكوبتر ،
راح ينقل ذخيرة الدبابة ، وقتابلها شديدة التدمير ، إلى مواضع
اختارها بمنتهى الدقة ، على طول العمر ..

ثم أوصل كل هذا بجهز توقيت خاص ، كان يحمله ضمن
معدات الساعة التقليدية ..

ولم يتبق بعدها سوى تأمين نفسه ..

وبسرعة ، استبدل بثيابه ثياب أحد رجال القوات الإسرائيلية
الخاصة ، الذين صرعوهم برصاصاته ، عند المدخل الشرقى ..

وما إن بدأ الهجوم الشامل ، حتى خرج من مكانه ..

واتدس بين الجنود ..

وكما يفعلون تمامًا ، راح يبحث عن مقاتلين مصريين

وهميين ..

حتى حانت اللحظة المناسبة ..

لحظة ضبط التوقيت ..

والمواجهة المباشرة ..

وعندما أطلق رصاصاته ، كان يدرك أن هذا بمثابة إعلان

وجود ..

وإعلان الحرب ..

مباشرة ..

ولقد اتجهت رصاصاته نحو أهدافها مباشرة ، وكأنه يدرك
حتمية الانتصار ، فى تلك المواجهة ..

وأصابته واحدة من رصاصات الجنود الأربعة ..

ولكنه حصدهم برصاصاته حصداً ..

وعند المدخل الغربى للممر ، هتف القائد مذعوراً :

- ماذا يحدث فى الداخل ؟!

اتفصل عنه ضابطه الأول ، وأطلق يده نحو الممر ، صائحاً :

- ضابط (الموساد) كان على حق .. المصريون ما زالوا هنا .

وبدون حتى أن يلقي أوامره ، كان جنود القوات الإسرائيلية

الخاصة يعدون بكل قوتهم ، نحو المدخل الغربى ، الذى انطلقت

عنده الرصاصات ..

أما قائد دبابة القيادة ، التي تتقدم الطيور ، فقد لمح ما حدث ،
وهتف بمنتهى الدهشة :

- ما هذا بالضبط ؟ خيانة ؟

وأمام عينيه ، رأى (أدهم) يثب إلى واحدة من سيارات الجيب
الثلاث ، عند المدخل الغربي ، ويدبر محركها ، ثم ينطلق بها
مبتعدًا ، فهتف في غضب :

- نعم .. إنها خيانة .

وبسرعة ، راح يخفض مدفعه ، ليصوبه إلى الجيب ، وهو
يضيف :

- والخيانة لها ثمن .. ثمن فادح .

نطقها ، في نفس اللحظة ، التي تجاوز فيها خمسة من جنود
القوات الإسرائيلية الخاصة دبابة القيادة ، وهم يطلقون النار
خلف الجيب ، التي ينطلق بها (أدهم) بأقصى سرعة ، على
رمال (سيناء) ..

وبكل الحزم والصرامة ، صوب قائد دبابة القيادة مدفعه نحو
الجيب ، و ...

وضغط زر الإطلاق ..

ودوى الانفجار .

* * *

١٢ - دماء ورمال ..

سرى توتر لا محدود ، في صوت وزير الحربية ، وهو
يراجع التقارير الأخيرة الواردة من كل قطاعات الجبهة ، وقرق
المخابرات والاستطلاع ، ويقول :

- كتيبة الدبابات وصلت إلى ممر (مثلا) بالفعل ، وستعبره
خلال دقائق معدودة .

اتعتقد حاجبا الرئيس ، وهو يغمغم :

- عجبًا ! أين ذهب ضابطنا إذن ؟

أجابه مدير المخابرات الحربية في تردد :

- ربما لقي مصرعه .

اتعتقد حاجبا الرئيس أكثر ، وهو يقول :

- هل تعتقد هذا ؟

أسرع قائد الصاعقة يقول :

- للدبابات لم تعبر الممر بعد ..

أجابه مدير المخابرات في توتر :

- إنها مسألة دقائق .

قال قائد الصاعقة في صرامة :

- ولكنها لم تعبر بعد ..

أشار إليهما الرئيس ، لفضّ ذلك الاشتباك غير المنطقي ،
وتنهّد في عمق ، قائلاً :

- إنها مسألة دقائق بالفعل .. دعونا ننتظر ، ثم نحسم الأمر
فيما بعد .

قال مدير المخابرات العامة في حزم :

- (أدهم) سيفعلها بإذن الله .

التفت إليه قائد القوات الجوية ، قائلاً في دهشة :

- يبدو أنك تثق بهذا الشاب كثيراً .

ابتسم مدير المخابرات العامة ، قائلاً :

- لست أثق به فحسب ، ولكنني أحلم بضمه يوماً إلى صفوفنا
أيضاً .

قال قائد الصاعقة في صرامة :

- إنه أحد رجالنا .

أشار مدير المخابرات العامة بيده ، قائلاً :

- ذلك الشاب يصلح للمخابرات العامة ، بأكثر مما يصلح
لقوات الصاعقة .

هزّ وزير الحربية رأسه في استنكار ، وهو يقول في حدة :

- ماذا أصابكما بالضبط ؟! هل تتنافسان على شاب ، هو
أقرب إلى الموت ، منه إلى الحياة ؟!

أجاباه الاثنان في آن واحد ، وبمنتهى الحزم والعزم :

- (أدهم) سيفعلها بإذن الله .

ابتسم الرئيس ، وهو ينقل بصره بينهما ، على الرغم من
دقة الموقف ، ثم تراجع في مقعده أكثر ، وهو يقول :

- كم أتمنى أن يستمر تنافسكما عليه هذا ، بعد أن تضع
الحرب أوزارها .

فهم الاثنان ما يعنيه الرئيس ، فابتسما بدوريهما ، وأشار
مدير المخابرات العامة إلى الساعة الكبيرة على الجدار ، قائلاً :

- إنها مسألة دقائق يا سيادة الرئيس ..

وكان على حق في قوله هذا ..

إنها مسألة دقائق ..

دقائق تفصل بين الحياة ..

والموت ..

* * *

غضب هادر ، ذلك الذى تفجّر فى اعماق قائد طاقم دبابة القيادة ، وهو بصوب مدفع دبابته نحو الجيب ، التى ينطلق بها (أدهم) مبتعداً ..

غضب عكس كل مرارته وحقه وسخطه ، على تلك الانتصارات المصرية الساحقة بطول الجبهة ..

الانتصارات التى حطمت الغرور الإسرائيلى ، ونسفت الفطرسية الصهيونية ، وسحقت أسطورة جيش الدفاع ، الذى لا يقهر .

وفى الوقت ذاته ، كان خمسة من جنود القوات الإسرائيلية الحاصية يطلقون مدافعهم الآلية ، بكل شراسة النتيا على الجيب ، وثلاثة منهم يندفعون لاستخدام جيب ثانية ، لمطاردة (أدهم) عبر الصحراء ..

وعلى الجانب الشرقى للممر ، كان قائد الكتيبة ، وضابطه الأول ، وطاقم الأمن المصاحب لطابور الدبابات يعدون بكل قوتهم ، لمعرفة ما الذى يحدث على الجانب الآخر

واستعد قائد دبابة القيادة لإطلاق صاروخه نحو الجيب ، و .

وفجأة ، دوى الانفجار ..

انفجار هائل ، نسف دبابة القيادة ، وكل الصخور المحيطة بها ، وأطاح بجنود القوات الخاصة الإسرائيلية الخمسة ، وبسيارتى الجيب ، وسحق ما يحيط بهم فى عنف

ولكن كل هذا لم يكن سوى البداية ..

فقبل حتى أن يستوعب الجنود داخل الممر ما حدث ، انفجرت القنبلة الثانية ..

عند المدخل الشرقى للممر ..

قنبلة أخرى من القنابل شديدة التدمير ، التى انتزعها من الدبابة المحطمة ، وزرعها وسط الصخور ، وأوصلها بجهاز التوقيت المتكرر ..

ومع انفجارها ، نسفت دبابة أخرى ، فى نهاية الطابور ..
وكل الصخور المحيطة بها أيضاً ..

وأطاحت بقائد الكتيبة ، وضابطه الأول ، وأربعة من جنوده على الأقل ..

وهكذا أصبح الممر معلقاً تقريباً من الجانبين ..

دبابة محترقة وكومة من الصخور ، عند مدخله الغربى .

ومثلها عند المدخل الشرقى ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد ظلت هناك فرصة لعبور جنود القوات الإسرائيلية الخاصة ، ومطاردة (أدهم) بكل العنف والشراسة ..

لولا القنبلة الثالثة ..

القنبلة التي انفجرت ، في منتصف العمر تعامًا ، لتصنع
موجة عنيفة من التضاضط ، مع شدة انفجارها ، فأطاحت بالكل
بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

كما يحدث في كل الحروب ..

ولقد بلغ دوى الانفجار مسماع (أدهم) ، وهو ينطلق
بالجيب مبتعدًا ، فضغط فراملها ، وأدبر مقودها ، ليلقى نظرة
على المشهد كله ..

كان الدخان يتصاعد من داخل المعمر ، ورجال القوات
الإسرائيلية الخاصة مجرد جثث هامدة ، فوق رمال
(سيناء) ..

والتقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، وهو يغلق عينيه في قوة ..

الآن فقط يمكنه أن يلتقط أنفاسه ..

الآن فقط يمكن أن يطمئن ، إلى أن عملية عنق للزجاجة قد
انتهت بنجاح ..

الإسرائيليون لم يتمكنوا من نقل الإمدادات إلى خطوطهم
الأمامية عبر المعمر ..

ولن يمكنهم هذا قبل عدة ساعات على الأقل ..

وهذا يحقق الهدف ..

ويعمل نفسه بالارتياح ..

والفخر ..

الفخر لأنه ضابط صاعقة ..

مصرى ..

ولم تكد الفكرة تجول بخاطره ، حتى انتزع عنه زى القوات
الخاصة الإسرائيلية ، وألقاه على الرمال ، ليستعيد زى قوات
الصاعقة المصرية ..

وكان هذا أمرًا محفوفًا بمخاطر شتى ، في مثل هذه الظروف ،
نظرًا لأنه ما زال عمليًا خلف خطوط العدو ..

ولكنه كان يشعر بأنه مصرى ..

ولا يرغب في إخفاء هذا لحظة واحدة ..

مهما كان الثمن ..

أو الخطر ..

وفي حزم ، التقط مسماع جهاز اللاسلكى ، وغير التردد
المستخدم ، وهو يضبط زر الاتصال ، قائلاً :

- من (أسد - ٣) إلى القيادة .. أجب . من (أسد - ٣)
إلى القيادة ..

ولم تكذ أجهزة الاتصال ، داخل مركز العمليات الرئيسى
تلتقط رسالته ، حتى هتف قائد الساعة فى لهفة :

- رباه ! إيه الملازم (أدهم) .

ثم اختطف سماع الجهاز ، وهو يضغط زر الاستماع العام ،
الذى يتيح لكل سماع الرسالة ، وهو يهتف :

- أين أنت يا (أدهم) ؟ ما الموقف عندك بالضبط ؟

أجابه (أدهم) فى حزم :

- أنا على بعد أمتار ، غرب معر (متلا) .

نهض الرئيس (السادات) من مقعده ، وهو يسأله فى لهفة :

- ماذا عن المعر يا ولدى ؟

أجابه (أدهم) ، فى سرعة واحترام :

- تم إغلاق المعر يا سيادة الرئيس .

تهللت أسارير الجميع ، وهتف الرئيس فى فرحة غامرة :

- حقاً ؟

أما مدير المخابرات العامة ، فقد غمغم فى سعادة :

- كنت أعلم أنه سيفعلها .

وفى هدوء ، أجاب (أدهم) الرئيس :

- حقاً يا سيادة الرئيس .. لقد نسفت دبابة القيادة ، عند
مدخل المعر الغربى ، ودبابة أخرى عند معمر الشرقى ، وثالثة
فى منتصفه ، ولست أظن الاسرائيليين يمكنهم حل هذه المشكلة ،
قبل ساعات من الآن .

انطلقت من حناجر الجميع هتافات السعادة والارتياح
والاعجاب ، وغمغم قائد القوات الجوية باهتسامة رصينة :

- من الواضح أنه يستحق المناقشة .

ثم مال على مدير المخابرات العامة ، مستطرداً :

- قل لى : هل يجيد قيادة الطائرات ؟

أما الرئيس ، فقد غمغم ، وهو يغلق عينيه فى ارتياح :

- حمداً لله .. حمداً لله .

أتى صوت (أدهم) مرة أخرى ، وهو يسأل فى لهفة .

- هل انتصرتنا يا سيادة الرئيس ؟

ابتسم الرئيس ، قائلاً :

- وكيف لا ينتصر شعب ، أنجب أبطالاً مثلك يا ولدى ؟!

غمغم (أدهم) ، فى لهجة أدهشت الجميع ، لما توحى به من خجل وارتباك :

- أشكرك يا سيادة الرئيس ، ولكن الواقع أننى لم ..

وفجأة ، وقبل أن تكتمل رسالته ، نقل جهاز الاتصال دوى رصاصات قوية ..

ثم توقف الاتصال بقعة ..

وبكل لهفة وقلق الدنيا ، هتف الرئيس (المصادات) :

- ملازم (أدهم) .. ماذا حدث عندك يا ولدى ؟! ماذا حدث ؟!

ولكن جهاز الاتصال ، فى مركز العمليات الرئيسى لم يتلقى سوى الصمت ..

صمت تام مستمر ، فجّر فى أعماق الكل قلقاً بلا حدود ..

صمت يوحى بأن الاتصال قد انقطع ..

والى الأبد ..

بدا الجنرال (دان زورسكى) شاحباً ممتقعاً كالموتى ، وهو يذلف إلى مكتب وزير الدفاع الإسرائيلى ، الذى استقبله بنظرة صارمة غاضبة ، وهو يقول :

- ضابطك المجنون استولى على طائرات الهليكوبتر المقاتلة يا جنرال ..

لرتبك (زورسكى) ، ولرتجفت شفثاه ، وهو يغمغم :

- الواقع يا سيدى أننى ..

قاطع الوزير ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، فى صرامة عصبية :

- الواقع هو أنك كنت تعلم ما يفعله من الهداية .

امتقع وجه (زورسكى) أكثر ، وهو يهتف :

- ليس كما تتصور يا سيدى .

مال وزير الدفاع نحوه ، ورمقه بنظرة كالجحيم ، من عينه الواحدة ، وهو يقول ، بكل صرامة وغضب الدنيا :

- بل ليس كما كنت تتصور أنت يا جنرال .. الكل فى مجلس الوزراء ثائر للغاية على ما حدث ، ويرون أن هذا التجاوز كان له شأن كبير ، فى انهيار قواتنا أمام الزحف المصرى ، ويصرون بشدة على معاقبة المسئول .

اتسعت عينا (زورسكى) فى ارتباك ، وهو يهتف :

- ولكننى لم ...

استوقفه وزير الدفاع بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

- لم تعد هناك فائدة .. أركان حربك اعترف بكل شيء

اتسعت عينا (زورسكى) أكثر ، وهو يرنذ ذاهلاً .

- أركان حربى .

أشار الوزير بيده ، قائلاً :

- لقد أكد أنك كنت تعلم بكل شيء من البداية ، وأنه حاول

نصحك بإيقاف (باراك) المجنون ، إلا أنك أنكأت له أنك

تستطيع الاستفادة من الموقف فى كل الأحوال ..

صرخ (زورسكى) :

- إنه هو الذى ...

قاطعه الوزير مرة أخرى ، بنفس الإشارة الصارمة ، وهو

يوصل بمنتهى الصرامة والغضب :

- قلو أفلح فيما أقدم عليه . كنت مستنصب كل ما حدث لنفسك ،

أما لو فشل ، فستلقى العيب كله على الآخرين .

بدا صوت (زورسكى) أقرب إلى البكاء ، وهو يهتف :

- أقسم لك يا سيادة الوزير إنه هو الذى ..

قاطعه الوزير مرة ثالثة ، وهو يعود إلى مكتبه ، قائلاً :

- إنتهى أصدقك .

زفر (زورسكى) بارتياح ، وخيل إليه أن ساقيه لم يعد

بإستطاعتها حملها ، إلا أن الوزير استدرك ، مستعيداً صرامته

الغاضبة :

- ولكن هذا لن يفيد .

هتف (زورسكى) فى زعر :

- ولكن لماذا ؟!

أجابه الوزير فى سرعة :

- لأن الباقين لا يصدقونك .

ثم صمت لحظة ، قبل أن يضيف فى صرامة :

- ثم إن رأى العام لن يقبل باتهام ضابط أركان حرب .

وعاد يميل نحوه ، مستطرداً :

- إنه يريد جنرالات ..

عادت عينا (زورسكى) تتسعان فى زعر ، وهو يقول :

- كبش الفداء .

تراجع الوزير ، قائلاً :

- بالضبط .

لم يكذ يتم كلمته ، حتى دلف اثنان من ضباطه إلى مكتبه ،
وصوبًا سلاحيهما إلى الجنرال ، الذي نقل بصره بينهما ، قبل
أن يقول في مرارة :

- يبدو أنني أنا من سيدفع الثمن .

أوما الوزير برأسه إيجابًا ، وقال في صرامة :

- (باراك) لن يفلت أيضًا .

عض الجنرال (زورسكي) شفقيه ، بكل مرارة الدنيا ،
والضابطان يحملانه خارج مكتب الوزير ، وشعر بموجة هائلة
من الغضب والسخط تعربد في أعماقه ، وتطرح على كل نرة
في كيانه سؤالًا واحدًا ..

سؤال لم يعد لديه من هدف في الدنيا ، سوى أن يجد إجابته .

أين (باراك صمتاي) الآن ؟!

أين ؟!

ولكنه لم يكن يدرك أنه لن يحصل على جواب لسؤاله .

أبدًا ..

* * *

« هذا لله على سلامتكم يا بطل .. »

نطق الدكتور (مصطفى) العبارة ، وهو يرتب على كتف
المقدم (راشد) الذي استعاد وعيه على التو ، داخل حجرته
في مستشفى القوات المسلحة في (المعادي) ، قبل أن يجلس
على طرف الفراش ، متابعًا :

- العملية تمت بنجاح ، وأمكننا إنقاذ سائقك وحياتك ، ولن
يمضي وقت طويل ، حتى يمكنك العودة إلى العمل .

غمغم المقدم (راشد) :

- في قوات للصاعقة ؟

ضحك الدكتور (مصطفى) ، قائلاً :

- ليس إلى هذا الحد .

ثم عاد يرتب على كتفه ، متابعًا :

- ولكن فلتحمد الله (سبحانه وتعالى) على نجاتك ، فلولا
وصولك إلى مستشفى الميدان في الوقت المناسب ، لما أمكننا
أن نفعل هذا .

ومال نحوه ، يغمز بعينه ، مضيفًا :

- أعتقد أنك مدين بحياتك لمن اتخذ قرار إعادتك إلينا .

غمغم المقدم (راشد) في تأثر :

- ولعن جازف بصره لينفذ القرار أيضًا .

اعتدل الدكتور (مصطفى) ، وهو يسير الى ركن الحجرة .
قائلاً :

- أتقصد هذا البطل ؟!

التفت المقدم (راشد) في سرعة ، إلى حيث يشير الدكتور
(مصطفى) ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يهتف :

- (صالح) !!

أجابته الجندي في خفوت :

- حمداً لله على سلامتك يا سيادة المقدم .

ارتجفت شفتا (راشد) في انفعال ، والدكتور (مصطفى)
يقول :

- لقد رفض أن يعود إلى وحدته ، قبل أن يطمئن على
سلامتك .. صدقتي أنا أحسدك على كل هذا الحب ، الذي يكنه
لك جنودك

غمغم المقدم (راشد) وهو يقاوم دموعه :

- إنه أكثر من مجرد حب أيها الطبيب

ثم ارتجفت شفتاه أكثر ، مع محاولته لكتمان انفعاله ، وهو
يضيف :

- إنه انتماء .

ارتفع حاجبا الدكتور (مصطفى) لحظة ، ثم لم يلبث أن
خفضهما ، وهو يتسم ، قائلاً :

- صدقت .

ثم عاد يربّت على كتفه ، وهو ينهض ، متابعاً :

- حمداً لله على سلامتك يا بطل .

قائلاً ، وغادر الحجرة ، تاركاً خلفه صمتاً رهيباً

وانفعالات بلا حدود ..

ولدقيقة كاملة ، ظل (راشد) يتطلع إلى جندي الساعة ،
قبل أن يمد يده إليه ، قائلاً في تأثر :

- أشكرك .. أشكرك يا بطل .

اندفع الجندي يصافحه في حرارة وهو يهتف :

- حمداً لله على سلامتك يا سيادة المقدم ..

شدّ (راشد) على يده أكثر ، وربّت عليها بكفه الأخرى ،
وهو يغمغم :

- لن أنسى ما فعلته من أجلى قط

تمتم الجندي متأثراً .

- كنت أنفذ أوامر سيادة الملازم (أدهم) يا سيدي

اعتدل (راشد) وهو يسأله في لهفة :

- أين هو ؟! هل من أخبار عنه ؟!

هزّ الجندي رأسه نفياً في صمت ، فاعتقد حاجبا (راشد)
وهو يغمغم :

- ترى أين هو الآن ؟!

وكان هذا هو السؤال ..

أين هو الآن ؟!

أين ؟!

* * *

التقى حاجبا (باراك) بتوتر بالغ ، مع ذلك الدخان الكثيف ،
الذي يتصاعد من المدخل الشرقي لممر (متلا) ، الذي توقفت
عنده مجموعة من الدبابات ، ولكنها تحاول إراحة دبابة محطمة
عن المدخل ..

وبكل غضب الدنيا ، هتف (باراك) :

- الأوغاد لم يصدقوني .. المصريون ما زالوا هنا .. أعلم
هذا منذ البداية ..

خلق بالهليوكوبتر عبر الجبل ، إلى الجانب الآخر منه ، وهاله
أن يرى المشهد نفسه ، باستثناء أنه لم تكن هناك دبابة واحدة
خارج الممر ..

فقط حطام ..

وجثث ..

ونساء ..

ورمال ..

وتضاعف غضبه أكثر .

تضاعف ألف مرة ..

لقد كان المصريون هناك ..

من المستحيل أن يكون مصرياً واحداً ..

من المستحيل تماماً !

وبكل غضبه وثورته ، راح يدور بالهليوكوبتر حول القمة ،
وهو يهتف :

- كان ينبغي أن يصدقوني .. كلهم حمقى .. حمقى ..

ومع دورته الثالثة ، لمح فجأة آثار إطارات الجيب عن الرمال .

ولمحاها من بعيد ..

وبداخنها (أدهم) بزي الصاعقة المصري ..

وعبر منظاره للمقرب ، أترك ما يفعله هذا الأخير ..

كان يتحدث عبر اللاسلكى ..

ليبلغ القيادة بنجاح مهمته بالتأكيد ..

وكان هذا يكفى ، ليتفجر كل غضب الدنيا ، فى أعماق
(باراك) ..

إذن فهو رجل واحد ..

ضابط صاعقة مصرى واحد ..

ثم يعد هذا مستحيلاً ..

إنه يراه ويرصده بنفسه ..

على رمال (سيناء) .

وعلى مسافة نصف الكيلو متر فحسب من العمر ..

من ساحة اتصالاته ..

وهزيمتهم ..

ودون أن يدرك ، وجد (باراك) نفسه يصرخ :

.. لا .. لا .. لا .. لا ..

ومع صرخته ، ضغط زر الإطلاق ، أعلى عصا القيادة ..

وانطلقت رصاصات الهليكوبتر ..

وفوجئ (أدهم) بالرصاصات تنهال عليه من بعيد ..

وتتصف جهاز الاتصال اللاسلكى ..

وبسرعة ، استدرك يرصد موقع الهليكوبتر ..

وأدرك لماذا فشل قائدها فى إصابته ..

لقد أطلق النار ، قبل أن يقترب منه لمسافة كافية ..

ولكنه سيقرب حتماً ..

وبسرعة ..

لذا ، فقد أدرك (أدهم) محرك الجيب فى سرعة .

ثم انطلق بها ..

على رمال (سيناء) ..

كان يدرك أنه لن ينجح فى الإفلات أبداً من الهليكوبتر ..

إلا لو انطلق فى مسار متعرج ..

وغير متوقع ..

وهذا ما فعله بالضبط ..

ضغط دواسرة الوقود بأقصى قوته ، وانطلق فوق الرمال ، بأقصى

ما تسمح به محركات السيلرة . وهو يميل يميناً ويساراً فى حدة .

ومن خلفه ، راح (باراك) يطلق النار بلا هوادة ، وهو
يصرخ :

- لن تفلت منى أبداً أيها المصري .. (باراك) لم يخسر معركة
واحدة في حياته .. هل تفهم ؟! لم يخسر معركة واحدة .

كانت رصاصاته تخترق رمال الصحراء ، وتفوق فيها ، حول
سيارة (أدهم) ، الذي استعان بكل مهاراته في القيادة ، و ...

ولكن (باراك) أيضاً لم يكن بالشخص العادي ..

إنه ضابط مخابرات إسرائيلي ..

ومقاتل شرس ..

للغاية ..

لذا ، فقد واصل مطاردة الجيب ، بكل الإصرار والعنف
والشراسة ..

حتى نجح في إصابتها أخيراً ..

واختزلت رصاصات الهليوكوبتر مؤخرة الجيب ..

ونسفت أحد بطاراتها الخلفية ..

ومع سرعتها الفائقة ، فقدت الجيب توازنها بعض .

ووثبت فوق رمال (سيناء) ..

واشتعلت النيران في خزان وقودها ..
ثم انقلبت ..

وفي اللحظة الأخيرة ، قفز (أدهم) خارجها ..

وتدحرج فوق رمال (سيناء) ..

ومن خلفه ، دوى الانفجار ..

انفجرت الجيب ، وتناثرت شظاياها في عنف ، فخفض (أدهم)
رأسه ، ورفع ذراعيه لرحمته ..

ثم تلاشى الدوى ..

وتصاعد صوت هدير مروحة الهليوكوبتر ..

وبدون أن يضيع لحظة واحدة ، وعلى الرغم من إدراكه عدم
جدوى هذا ، وثب (أدهم) واقفاً ..

واقطع يده بكل قوته ..

وفي الهليوكوبتر أطلق (باراك) ضحكة عالية مجنجلة ،
وهو يهتف في وحشية :

- هيا .. اجر يا ضابط الصاعقة المصري .. اركض على رمال
(سيناء) ، كما فعل أقرانك في حرب يونيو ١٩٦٧ م .. هيا ..

ثم تعقد حاجباه .. في شدة ، وهو يتابع ركض (أدهم) ، قبل
أن يتابع في صرامة شرسة :

- ولكن اطمئن . في هذه المرة لن أطارذك برصاصات
الهليوكوبتر ..

ودفع جزءاً من عصا القيادة ، فارتاح في نعومة ، كاشفاً زراً
أحمر كبيراً ، و (باراك) يقول :

- إنك تستحق ما هو أفضل ..

وتألفت عيناه بشدة ، وهو يضيف :

- تستحق صاروخاً ..

كان (أدهم) يعدو بكل قوة ، إلا أن أجهزة التوجيه في
الهليوكوبتر رصدته في سهولة ..

ولم يعد من الممكن أن يخطئ (باراك) إصابته .

وخصوصاً بصاروخ ..

لذا ، فقد تضاعف تألق عيني (باراك) ، ولارتجفت كل ذرة
في كياته ، من فرط التوتر والانفعال ، وهو يقول ، بكل ما يملأ
كياته من غضب ، وثورة ، ووحشية ، وسخط :

- هنا تنتهي الحرب بالنسبة لك ..

وضغط زر الإطلاق ..

وكان الانفجار قوياً ..

وفي الهدف ..

مباشرة .

★ ★ ★

١٢ - الختام

فجأة ، ظهرت تلك الهليوكوبتر المصرية ..

وفجأة أيضاً ، انقضت على هليوكوبتر (باراك) ..

لقد فوجئ بها (أدهم) ، تبرز من خلف تبة رملية عالية ،
وتتجاوزه بسرعة مذهشة ، ثم تطلق صاروخها نحو هليوكوبتر
(باراك) ..

في نفس اللحظة ، انقضى ضغط فيها هذا الأخير زر الإطلاق ..

وقبل أن يخرج صاروخه إلى هدفه ، بلغه الصاروخ المصري ..

وأصاب الهدف ..

مباشرة ..

ودوى انفجار آخر ، في سماء (سيناء) ..

وانقضى (أدهم) جسده أرضاً ، وشعر بكل إصاباته تنزف

بشدة ، ودوى الانفجار يتردد في أذنيه ، ثم ينتهي بصوت ارتطام
عنيف بالأرض ..

وثوان ، ظل (أدهم) في موضعه ، وشظايا الهليوكوبتر

الإسرائيلية تتناثر في كل مكان ..

وعندما نهض أخيراً ، كانت رمال (سيناء) تتشرب الكثير من دمه ..

وكانت ضماداته كلها حمراء ..

ولكنها بدت له ، فى تلك اللحظة ، أشبه بوسام ..

وسام أحمر قان ، منحته إياه الحرب ، التى خاضها بكل كيانته ، من أجل الوطن ..

من أجل (مصر) ..

وفى مهارة ، اتجهت الهليكوبتر المصرية نحوه ، وهبطت على مساحة أمتار قليلة منه ، وبرز منها ضابط صاعقة ، هتف به :

- أسرع أيها الملازم (أدهم) .. أسرع

كانت كل جراحه وإصاباته تؤلمه ، ولكنه دفع جسده نحو الهليكوبتر ، التى لم يكد يستقر داخلها ، حتى ارتفعت به على الفور ، والضابط داخلها يقول فى سعادة ولارتياح :

- حمداً لله . لقد وصلنا فى الوقت المناسب ..

رقد (أدهم) على أرضية الهليكوبتر ، وهو يغتم :

- هذا من حسن حظى .

هز الضابط رأسه نفياً ، وهو يقول :

- لا شأن للحظ بالأمر . إننا هنا من أجلك .

قال فى دهشة :

- من أجلى ؟!

لوما الضابط برأسه ، قائلاً :

- نعم يا بطل .. إننا هنا لانتشالك وإعادتك إلى الوطن ، وبأوامر من السيد رئيس الجمهورية شخصياً .

شعر (أدهم) بكل تعب وإرهاق الدنيا ، بعد أن استرخى جسده ، وهو يغتم :

- حقاً ؟!

كان مصاباً بشدة ، وفقد الكثير من دمه ، ولم يذق لحظة واحدة من النوم ، منذ صباح الخامس من أكتوبر ، ويقاوم طوال الوقت ..

ولكن يبدو أنه لم يشعر بهذا ، إلا عندما استقر داخل الهليكوبتر ..

لقد بذل جسده جهداً مضاعفاً ، وهو يصر الآن على استعادة حقه فى الراحة والاسترخاء ..

وبينما يغلق (أدهم) عينيّه ، سمع ضابط الصاعقة يتحدّث
عبر اللاسلكى لبضع لحظات قبل أن يناوله المسماع ، قائلاً
بابتسامة كبيرة :

— السيد رئيس الجمهورية يرغب فى تهنّتك بنفسه أيها
الملازم ..

التقط (أدهم) مسماع اللاسلكى ، ووضعّه على أذنيه ، دون
أن ينهض من رفقته ، وسمع الرئيس (السادات) يهتف فى
حماس :

— أحسنت يا (أدهم) .. أحسنت يا بنى .. كلنا كنا واثقين من
أنك ستفعلها .. رحم الله والدك يا بنى .. صحيح المثل القائل ،
ما مات من أنجب .. كلنا هنا فى انتظارك يا ولدى ، وسيتم إسعافك
على الفور .. هل تسمعنى يا (أدهم) ؟ هل تسمعنى يا ولدى ؟!

ولكن (أدهم) لم يكن يسمعه فى الواقع ..

لقد تمرّد جسده أخيراً على كل القواعد الطبيعية ..

أو بمعنى أدق ، عاد إلى كل القواعد الطبيعية ..

وفقد البطل وعيه .

فقدّه بعد أن حقق انتصاراً ستقف كل كتب التاريخ عاجزة
عن استيعابه وتصديقه طويلاً ..

انتصاراً جعل من ممرات (سيناء) عنق زجاجة ، أمام جيش
(إسرائيل) كله ، وجعلهم يدركون أنهم لا يمكن أن يصبحوا
أبداً جيشاً لا يقهر ..

لأنه على حدودهم يوجد أسود ..

أسود (مصر) ..

سرت قشعريرة عجيبة فى جسد (قدرى) ، مع نهاية القصة ،
ووجد كل نرة فى كيانه ترتجف انفعالاً ، وهو يهتف :
— رائعة .. مغامرة رائعة .

ابتسم مدير المخابرات ، وتطلّع إلى الشمس ، التى تفرّغ مكتبه
كله ، فى ساعة الظهيرة ، وهو يقول :

— لراهن على أنك لم تسمع عنها أبداً ..

أوماً (قدرى) برأسه إيجابياً ، وهو يهتف فى انبهار :

— (أدهم) لم يخبرنى بها أبداً .

تتهذ المدير ، وقال :

— ولكن كان من الضرورى أن يخبرنى أنا .

وصمت لحظة بابتسامة هادئة ، ونظرة شاردة ، وكأنما يستعيد
المزيد من الذكريات ، قبل أن يقول :

- لقد تم نقله مباشرة إلى مستشفى المعادى العسكرى ، حيث
عالج الأطباء إصاباته .. ولقد زاره السيد رئيس الجمهورية
بنفسه ، ومنحه وسامًا ، وترقية استثنائية ، جعلته يحمل رتبة
نقيب ، قبل أن يكمل الخامسة والعشرين من عمره ..

هزّ (قدرى) رأسه فى قوة ، وهو يقول :

- هذه الأمور تجعلنى أنفعل بشدة ، و ...

بتر عبارته بغتة ، فضحك المدير ، قائلاً :

- وتشعرك بالجوع .. أليس كذلك ؟

ابتسم فى خجل ، وهو يومئ برأسه إيجابًا ، فنهض المدير
من خلف مكتبه ، وهو يقول :

- أعتقد أنه من الأفضل أن نعود إلى منزلينا ، ونتناول طعام
الغداء هناك ، فكلانا لم يذق للنوم طعامًا ، منذ صباح أمس .

نهض (قدرى) بدوره ، وهو يقول فى حماسة :

- ولكنها كانت سهرة ممتعة ، لم أحظ بمثلها فى حياتى قط .

ابتسم المدير ، قائلاً :

- عظيم .

سارا متجاورين ، واستقلا المصعد إلى الطابق الأرضى ، وبينما
يغادران مبنى الأمن القومى ، توقف (قدرى) فجأة ، ليسأل :

- وماذا عن المقدم (راشد) ؟

التفت إليه المدير بدهشة ، قائلاً :

- ماذا عنه ؟

لوح (قدرى) يده ، قائلاً :

- أعنى هل عاد إلى عمله ؟! أقصد أما زال حيًا يرزق ، أم ..

شرد بصر المدير بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول :

- كلاً .. لم يعد إلى عمله .

ثم ابتسم ، مستطردًا بنفس الشرود :

- ولكنه حصل على عمل أفضل .

سأله (قدرى) فى لهفة :

- أين ؟

تطلع إليه المدير بضع لحظات فى صمت ، ثم وضع يده على
كتفه ، قائلاً :

- هل تعلم يا (قدرى) ؟! أنا لم أرو لك القصة بكل تفاصيلها .

هتف (قدرى) منزعجًا :

- حقًا ؟

أجابه المدير :

- نعم يا (قدرى) .. لقد أخفيت عنك الاسم الحقيقى لذلك
المقدم .

بهت (قدرى) ، وهو بهتف :

- ولكن لماذا ؟!

شرد المدير ببصره لثوان أخرى ، وهو يقول :

- ربما لم بيدلى هذا مناسبا ، فقد منعتة إصابته من العودة إلى
صفوف الصاعقة ، ولكن القيادة رأت ، بعد أن وضعت الحرب
أوزارها ، أن خبراته أكبر من أن يعتزل أو يتقاعد ، فى تلك
السن المبكرة ، لذا فقد ألحقوه بعمل آخر أكثر أهمية ، حقق
فيه نجاحا كبيرا ، حتى بلغ أرفع مناصبه .

سأله (قدرى) بلهفة أكبر :

- أى عمل هذا .

ابتسم المدير ابتسامة كبيرة ، وربت على كتفه ، قائلا :

- قل لى يا (قدرى) .. ألم تسأل نفسك ، لماذا تربطنى
بـ (أدهم) علاقة خاصة جدا ..

سأله (قدرى) فى حنر :

- لماذا يا سيدى ؟!

أجابه المدير :

- لأننى أدين له بحياتى .

ثم مال نحوه ، وأضاف بابتسامة كبيرة :

- وبسألى أيضا .

فغر (قدرى) فاه ، وهو يحدق فى المدير بدهشة بالغة ،
ولكن هذا الأخير ربت على كتفه المكتظ ، ثم استقل سيارته ،
واتطلق بها عائدا إلى منزله ، وعقله ما زال يسترجع ذكريات
تلك العملية ، التى لن ينساها قط ..

العملية التى أثبت فيها (أدهم صبرى) أنه رجل من نوع
خاص جدا ..

رجل المستحيل ..

كل المستحيل .

* * *

(تمت بحمد الله)

سلسلة
الأعداد
الخاصة

عملية عنق الزجاجة

روايات
مصرية
للجيب



د. نبيل فاروق

عملية عنق الزجاجة

- اقتربت ساعة الصفر - في أكتوبر ١٩٧٢م - وحدثت لحظة المواجهة - التي انتظرتها الأمة العربية كلها ..
- وكجزء من خطة القتال - كان من الضروري إرسال فرق أسود الصاعقة - لتحتل وتسيطر على الممرات الرئيسية - من قلب (سيناء) - لمنع الإمدادات وإخلاء الأسراليبيين وقواتهم - من بقوع الخطورة الأمامية - حتى تتم السيطرة الكاملة على أرض القتال ..
- وكان القلازم أول (أدهم سموري) - أحد ضباط الصاعقة - الذين همبوا على مصر (مثلا) -
- ولأن الأحداث لم تسر كما توقع - وجد (أدهم) نفسه محبباً - رجل الصاعقة الوحيد - المتبقي على قيد الحياة - والذي ينبغي له أن يوقف الإمدادات الإسرائيلية كلها -
- فما الذي يمكن أن يفعله رجل واحد - في مواجهة جيش كامل
- هذا هو السؤال ..



الشمع في محضر
وسايفات بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

توزيع وفروع
في جميع أنحاء العالم

